

Jerusalem from the Perspective of Orientalist Travelers and Critical Studies¹

Amaria Hakem

Universite Dr. Tahar Moulay-Saïde, Algeria

hakemamaria13000@gmail.com

Arrival date: 2018-02-03 Acceptance date: 2018-05-28

Abstract

Humanity knew the trip as a human act at all stages and in different forms, carrying different experiences where the daily and the imaginary were mingled by significant signals and colours. From this point, the trip is generally one of the first expressive forms in which the writing is used in the personal pronoun I without embarrassment, and shapes that constantly raise the image of the other. Therefore, it makes the trip open text in all fields and in different forms, either partial or complete with the reconstruction of **Vladimir Kreznski**. In addition, it is by nature omnipresent in history, mythology and literature without forgetting ethnography, it is one of the symbolic and thematic models of the productive literature.

Considering that the trip is an open text, it cannot be textured in a box that determines its nature in a certain way that narrows the liberation of the text from expansion and its spread on other essential fields.

According to this thematic I am going to explore the following items:

- The open affiliation for the trip
- Awareness of the journey text and speech

Taking advantage of reading the three streams critics, one of it is the travel literature (spy) as **Edward Said** (1978). Moreover, some of it considers the trip or the travel literature as a cultural exchange as **Rana Qabani**, and the third stream considers the travel literature as a genre worthy of attention because of the multiplicity of voices and through it the clearness of nations cultures. I am focusing on my study on the journeys of **John Mandeville**, this book tells the story of Mandeville flights in Jerusalem, Egypt, Jordan, Syria and China, as well as this book provides the reader with further information on the European spirit that spread with hatred toward Muslims in the middle ages .voiding sweeping generalizations and negative view of orientalist writings about Jerusalem (El Qods), especially the aesthetic dimension and the Western critique in travel literature mainly in **Serine's Hot** and **Catherine's Sampson** studies, by monitoring a middle approach that can benefit from foreign travel literature study on the East in general and in Jerusalem in particular.

Keywords : Perspective of Orientalist Travelers, Critical Studies, image of the other.

¹ This article is an enlarged version of the text presented in the "Jerusalem Symposium in Modern World Literature" held at the University of Jordan from 21-23 March 2017.

مداخلة: القدس عيون الرحالة المستشرقين والدراسات النقدية

الدكتورة: عمارة حاكم

مديرة مخبر الترجمة والتأويل في ظل التواصل متعدد اللغات

جامعة د/ مولاي الطاهر - سعيديّة - الجزائر

الهاتف: 00 213 555 239 561

البريد الإلكتروني: hakemamaria13000@gmail.com

ملخص المداخلة:

مستفيدة من من اطلاعي لتيارات نقدية ثلاث بعضها يعتبر أدب الرحلة جوسسة كإدوارد سعد(1978) وبعضها يعتبر أدب الرحلة يعتبر أدب الرحلة تبادلا ثقافيا كرنا قباني، وتيار ثالث ينظر إلى أدب الرحلة على أنه جنس أدبي جدير بالاهتمام لأن فيه تعدد فيه أصوات المؤلف وتتضح من خلاله ثقافات الشعوب

وسأركز في دراستي هذه على رحلات السير جون ماندفيل، هذا الكتاب الذي يحكي قصة رحلات ماندفيل في القدس ومصر والأردن وسوريا والصين. وذلك أن الكتاب يقدم للقارئ الأوربي معلومات هامة بعيدة عن روح البغضاء التي انتشرت تجاه المسلمين في القرون الوسطى، متجنبنة التعميمات الجارفة و النظرة السلبية لكتابات المستشرقين حول القدس، خاصة البعد الجمالي ونقد الغرب في أدب الرحلات في دراسات سيرين هاوت وكاترين سامبسن، وذلك برصد منهج وسطي يمكن الاستفادة منه في أدب الرحلات الأجنبية حول الشرق بشكل عام والقدس بشكل خاص .

تمهيد

يتناول هذا الموضوع معالجة أحد المواضيع التي شكلت محطة هامة في الدراسات النقدية الحديثة، باعتبار قداسة المكان وشرفه حسب كل ما توحى به كل الديانات. فالقدس هي أرض الله، وهي أرض الملك العظيم وهي أرض الميعاد، ثم إنها مهد الأنبياء والرسل،

عرفت البشرية الرحلة باعتبارها فعلا إنسانيا في كل المراحل، وبأشكال مختلفة حاملة لتجارب وخبرات اختلط فيها اليومي بالمتخيل بتلويبات وإشارات دالة

ومن ثم فإن الرحلة عموما هي من أولى الأشكال التعبيرية التي استعملت فيها الكتابة بضمير الأنا دون تخرج، ومن الأشكال التي تطرح فيها باستمرار صورة الآخر، هذا الأمر الذي جعل الرحلة نصا مفتوحا على كافة الحقول بأشكال مكتملة وجزئية وهي بتعبير فلاديمير كرينزسكي هي بطبيعتها متعايشة ومشاركة للتاريخ وللميثولوجيا وللأدب دون الحديث عن الإثنوغرافيا، إنها إحدى النماذج الثيماتيكية والرمزية من الادب الأكثر إنتاجا.

وعلى اعتبار أن الرحلة نص مفتوح فإنه لا يمكنها أن تتسيج في خانة تحدد تجنسها بصفة معينة تضيق من تحرر النص الرحلي من اتساعه وانتشاره وهجومه الضروي على حقول أخرى، ولهذا فإن القول بنصيتها هو انفتاح على دينامية الرحلة، وعلى خطاباتها المستندة على طرفي الذات والآخر وجسور التعبيرات المختلفة عنهما وحوهما.

ووفق هذا الطرح سأعالج في مداخلي مايلي:

-الانتساب المنفتح للرحلة

- الوعي بالرحلة نص وخطابا

2- الاستشراق:

الاستشراق من حيث معناه الواسع هو الدراسة العالمية لبلدان الشرق، ولما كان محكوما بالحضور السياسي الفرنسي في الشرق الأدنى والشرق الأوسط وبعد ذلك بالاستعمار في شمال إفريقيا، فقد كرس نفسه بشكل خاص للبلدان العربية، حيث إن الاستشراق الفرنسي الذي رفع إلى جرم المعمودية بفضل الفكر الموسوعي والأنوار والرومانسية "إنسيّ النزعة" وبعد ما احتوته جزئيا خدمة الدول؛ أمسى مناظلا وإثنوغرافيا⁴.

والاستشراق كلفظ أكاديمي (*Orientalisme*) لم يعرف إلا في عام 1838م، علما بأن الأعمال التي عنيت بالشرق قد أفضت خلال القرن 18م إلى بعض النتائج، ومن بينها صدور ترجمة (ألف ليلة وليلة) ما بين (1783-1704م) من قبل أنطوان قالان في بداية عصر الأنوار وترجمة القرن من لدن كلور سافري في 1783م أو رسائل حول مصر عام 1786م التي هي ذات بال بالفعل⁵.

وعن ترجمة بعض المصادر، فقد حذر أنور الجندي من هذه الترجمات لأنها قد شوهت الإرث العربي الإسلامي، ولذلك قال: "وفي مجال الأدب، نجد هناك من لازال يعتبر كتاب (الأغاني) مرجعا وكتاب (ألف ليلة وليلة) مصدرا على الرغم من محاذير الاعتماد على مثل هذا النوع من التأليف أو غيرها من كتب المحاضرات،

ولقد زارها أكثر من باحث إما سائحا متطلعا أو لأغراض أخرى استدعتها الضرورات العلمية أو الدينية أو التجارية أو السياسية. ومهما تعددت واختلفت المقاصد والغايات فقد شكلت الرحلة إلى القدس خاصة والمشرق العربي عامة، جنسا أدبيا يسمى بأدب الرحلات؛ أو بجغرافيا الأدب أو بتاريخية الأدب. وفي تصنيف الرحلات، سميت الرحلة إلى الشرق بالاستشراق.

1- الرحلة:

عرفت الرحلة باعتبارها فعلا إنسانيا في كل المراحل وبأشكال مختلفة، حاملة لتجارب وخبرات اختلط فيها اليومي الواقعي بالمتخيل (2 الوصف الجميل) بتلويينات وإشارات دالة، فالرحلة نصّ مفتوح على كافة الحقول بأشكال مكتملة أو جزئية. وهي بتعبير فلاديمير كرينسكي: هي بطبيعتها متعايشة ومشاركة للتاريخ والميثولوجيا والأدب دون الحديث عن الإثنوغرافيا.. إنها إحدى النماذج التيماتيكية والرمزية من الأدب الأكثر إنتاجا²

وعلى العموم؛ فلقد تأطرت الرحلة مثلها مثل النصوص السردية الطويلة التي شكلت الإرث التراثي الممتلئ بالخيال وبيصمات الواقع، وبتقافة العين، ووجهات نظر مختلفة حول الآخر، وبإضاءات للأنا/الذات والنحن، ونسجت وشائج متعاقبة مع أشكال دينامية تلمّع سرود التجربة وتحفزها وتطعمها من أجل "معرفة الذات" باعتبارها وسيلة للمعرفة والانفتاح على العالم³ والاستشراق هو أحد الإضافات السردية إلى مجال الأدب وأجناسه المعروفة، فما مفهومه؟

⁴ دانيال ريف: الاستشراق العالم، (Savant) (من الإنسية إلى سياسة)، تر: محمد ياحياتن، مجلة معالم، عدد 4، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2011، ص 29.

⁵ المرجع نفسه، ص 29.

² ينظر: حليفي شعيب: الرحلة في الأدب العربي (التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، دار القرويين، الدار البيضاء المغرب، ط/2، 2003، ص 6

³ المرجع نفسه، ص 51.

الأنبياء والأباطرة وجحافل الغزاة، كما كانت دائما أحد مراكز التصادم بين الإمبراطوريات القديمة والحديثة، فتعرضت للتخريب في حياتها الطويلة ست عشرة مرة، وفي كل مرة كانت تنهض إلى الحياة من جديد، وتعود بقوة متعافية، تجلت بها حكمة الأنبياء، فلعبت دورا مهما في الأديان الثلاثة، وشهدت الإسراء معجزة الإسلام الكبرى، وهي أول القبليتين، وثالث الحرمين الشريفين، وشهدت جبالها ووهابها دعوة السيد المسيح عليه السلام، وهي للعرب تاريخ محفوظ، وقد ظلت لفلسطين كالقلب ومن أكبر مدنها حتى بدأت المؤامرة الصهيونية ووقعت تحت نير الاحتلال وبرائنه، وأصبحت بالتالي أخطر تحدّي يواجه العرب في تاريخهم الحديث⁹.

3- كتابات الرحالة المستشرقين:

في ظل غياب كتابات بأقلام عربية عن الأوضاع التي كانت سائدة في البلاد العربية، وخاصة في فلسطين، وُجد كثير من كتابات المستشرقين، الذين اعتمد على كتاباتهم في مجالات عدّة؛ أدبية، وسياسية، واجتماعية وعلمية واقتصادية وثقافية وعسكرية على حسب أغراض المطالع على تلك الكتابات؛ التي كان بعضها عبارة عن رسائل من الرحالة إلى أهله أو أصدقائه أو إلى الباباوات، أو على شكل كتاب وصف ومشاهدات.

ويشير المؤرخ سليمان الموسى صاحب كتاب (حالات في الأردن وفلسطين) إلى أنّ الفرنسي أركولبي (Arcolbi) هو أول الرحالة الذين زاروا المنطقة العربية، وخصوصا فلسطين عام 700م، أثناء حكم الدولة الأموية حيث أقام هذا الرحالة في فلسطين تسعة أشهر، أمضاها متنقلا بين القدس وبيت لحم وأريحا والناصرية

ونحن في حاجة دائمة إلى التذكير بمصادر هذه الكتب، ومراجعة أمر الذين قاموا على كتابتها وإعدادها⁶.

ولم ينتظر الناس من لفظ الاستشراق بأن يشير إلى تدريس اللغات الشرقية والمخطوطات وإعمال النظر في مجتمعات الشرق أو استفهام الصور والمنقوشات إلا منذ أن سُخرت الظروف الحقيقية لاكتشاف عالم عميق للشرق الذي كان عبارة عن عالم مليء بالألغاز، وبعيد وغرائبي، أي عالم مغاير، يبدأ بعد حدود أوروبا الوسطى ويمتد إلى غاية ضفاف الصين واليابان، بل ويشمل جزءا كبيرا من إفريقيا، فالشرق يمتد إلى أبعد من حدوده النفعية والضيقة إلى حدّ ما، ولقد كانت الخطة الأولى هي تدريس اللغات الشرقية (التركية، والعربية الفارسية) لإقامة علاقات معها ومع البلدان الإسلامية⁷.

ولم يكن الشرق الأدنى موضوع فضول الأفراد وحلمهم بل كان يبدو شيئا فشيئا كمهد للإنسانية، ففيه ولدت الديانات وفيه أيضا استمد التاريخ أصله، فأطلال الماضي قد اكتشفت في اليونان ومصر وسوريا وبلاد الرافدين، وشرع في فك الكتابات القديمة وباحتلال فرنسا لشمال إفريقيا (الجزائر، المغرب، تونس) وبفك شفرات الكتابات القديمة تمثلت لديها خارطة ذهنية للبلدان الواقعة في ما وراء المتوسط⁸.

وبامتلاك الفكرة والأداة؛ تحافت الأجناب على زيارة القدس، أرض الله، وأرض الملك العظيم، وأرض المعاد، وأورشليم، والأماكن الشريفة المقدسة، وأرض المعجزات الدينية وبلاد الأنبياء، "وتتمتع مدينة القدس بخصوصية كبيرة لأنها تختص باستمرارية فريدة تتحدى التاريخ، فقد التقت داخلها حضارات العالم، ومرّ بها

⁶ أنور الجندي: سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، دار الشهاب، باتنة الجزائر، د/ط، د/ت، ص10.

⁷ دانيال ريبغ: الاستشراق العالم، ص30.

⁸ ينظر: المرجع نفسه، ص31.

⁹ محمد أحمد صالح: السياسة الصهيونية لتغيير التركيبة الديمغرافية قبل أن تضع القدس، مجلة العربي، وزارة الغعلام، الكويت، عدد 505، ديسمبر 2000، ص: 21-22.

حمل أكياس القمح من حوران إلى عكا، فملاحظ أن هذا الرحالة كان يدقق في نقل كل الأوضاع التي شاهدها أثناء إقامته بفلسطين، وخاصة بالقدس¹².

وتشير الدراسات إلى أن آخر رحلات القرون الوسطى كانت رحلة الألماني **فليكس فابري (Filix Fabri)** إلى القدس، الذي زار الأماكن المقدسة مرات ثلاث؛ الأولى عام 1457م والثانية عام 1484م وأثناءها بعث رسائل إلى إخوانه في دير الدومينكان تناولت كتابات في مشاهداته اليومية لتلك الأماكن الشريفة المقدسة، أما الرحلة الأخيرة فكانت عام 1489م¹³

وتشير الباحثة **سهير نعينع** إلى أن الجزء الأول من كتابات **فابري** حول رحلته إلى القدس يمثل مذكرات ومشاهدات يومية حسب الوعد الذي قطعه **فابري** على نفسه للرهبان من جماعة الدومينيك وهو وصف دقيق جدا لكل ما شاهده **فابري** في القدس التي ينتشر شذاها في كل أنحاء العالم، حيث أشار إلى جمالها وإلى ذلك التسامح والتعايش الذي كان سائدا بين المسيحيين والمسلمين وقلة من اليهود، وهذا في عهد حكم المماليك، ولقد سخر **فابري** من طلب اليهود إلى السلطان المملوكي، المتمثل في **كنيسة صهيون** كونها مكان دفن النبي **داوود** -عليه السلام- فقال: "لم يقيم اليهود بهذه المطالبة مجرد تجميل واحترام مقابر الملوك، وإنما كانوا يأملون في الوصول إلى توابيت الملوك والعثور على الكنوز التي يعتقدون بوجودها هناك، بزعم أنها من حقهم"¹⁴ ولقد رفض السلطان هذا الطلب، وأغلق الباب الخاص بالدير.

ويافا، ولعل الذي أدهش هذا الرحالة (**أركولي**) هو كثرة أشجار الزيتون في فلسطين، وهي الدهشة نفسها التي تملك رحالة آخر هو البريطاني **ويلي بالد (Wilibald)** عام 721م، وبناء على تلك الأريحية التي شهر بها الرحالة الفرنسي **أركولي** في القدس نصح المؤمنين بزيارتها ومشاهدتها للغنيمة من تلك الأريحية لتنقية الروح والإحساس بالصفاء الجسدي¹⁰.

ونظرا للأمن الذي كان سائدا في فلسطين قال **برنارد الحكيم** في مذكراته عام 867م: "إن الوفاق سائد بين السكان مسلمين ومسيحيين كما أن التعاون بينهم هو ميزتهم الأساس التي لم يشاهد مثلها هذا الحكيم في أي مكان من قبل. وفي عام 1102 قام **ساولف** برحلة إلى فلسطين في زمن الحروب الصليبية، حيث لم تكن هذه الرحلة رحلة وصف وسياحة وإنما كانت رحلة استطلاعية واستكشافية لأهداف عسكرية أي إنها كانت بمثابة جوسسة، حيث بين **ساولف** كيف كانت مقاومة العرب والمسلمين للغزاة تتبع أسلوب الحرب الشاملة"¹¹.

وعلى ذكر الحماية والشهامة والمروءة التي اشتهر بها العرب قبل وبعد مجيء الإسلام؛ فقد سجل البريطاني **تريسترام** في كتاباته الرحلية تفاصيل الرحلة إلى الحج من القدس إلى بيت الله الحرام؛ وكيف أنه كانت هناك عشيرة تدعى **عشيرة العريقات** التي تقطن في قرية **أبي دبس** القريبة من القدس، ترافق الحجاج من القدس إلى أريحا ثم إلى نهر الأردن من أجل حمايتهم من الهجمات، كما لاحظ **تريسترام** أن هؤلاء القوم كانوا يتدفقون من الحطب الذي كانوا يقطعونه من الأشجار وبعضهم كان ينتفع ببيع الحطب والفحم إلى أهل القدس، بالإضافة إلى

¹⁰ سناء غرموش: القدس في عيون الرحالة الأجانب (مدينة

التسامح والإخاء)، موقع إلكتروني: thawra.say-pint-view.net

¹¹ ينظر: سناء غرموش، القدس في عيون الرحالة الأجانب.

¹² ينظر: المرجع نفسه.

¹³ ينظر: المرجع نفسه.

¹⁴ ينظر: المرجع نفسه.

ولذلك فإن قارئ كتابه (المسار من باريس إلى القدس) لا يجد سمة الاكتشاف والفضول، وإنما يجد إحساس من يبحث عن أصله في هذه الأرض، فبدأ مفسراً محملاً بالحقائق والوقائع التاريخية التي قد تتناقض تفاصيل بعضها مع عفوية المنظر، لقد كانت له نظرة روحية كيف لا؟ وهو قد زار مهد الأنبياء، لذلك فهو يتمعن في إيراد التفاصيل الطريفة وكأنه نوع من الحج إلى مهد الحضارات القديمة والوقوف على الأطلال لتصوير ماضيها، وأخذ العبر منها. لذلك قال: "إن مساري هو مسار رجل انطلق أصلاً إلى حيث يرى السماء والأرض والماء"، ويعتبر مؤلفه مرجعاً أساساً من وجهة نظر الرحلة من أوروبا إلى الشرق¹⁶.

وفي بعض الأقسام من الكتاب، يبدو شاطو برايان مستمتعاً خاصة بمواقع الأحداث الدينية والتاريخية والروحية، خاصة في القدس لأنها موطن ومهد الأديان السماوية، ولقد كان هذا الكتاب فرصة للتزود بمعرفة الشرق، ولتنافس الباحثين والدراسين ليؤلفوا مثله في أدب الرحلات، أو التزود بالمعلومات التي تخص تخصصاتهم، إلا أن من حاول أن يبدع مثله فإنه لم يستطع فعل ذلك، لأن الكتابة قبل أن تكون تقليداً فهي إحساس أولاً وتصور لا يمكن تقليده وتفسيره إلا صاحبه، وإن كان هناك من استطاع الاقتراب من أسلوب شاطو برايان فإنه خادمه جوليان الذي رافق سيده إلى القدس، وحيث ظل يكتب هو الآخر كل ما شاهده إلا أنه لم يفصح عن ذلك إلا عام 1901م في كتاب بعنوان: (جوليان خادم شاطو برايان).

وفي عام 1948م زار الكاتب الروسي نيكولاي غوغول صاحب المؤلفات الأدبية الرائعة الخالدة (القدس)، وبقي بما قرأه أسبوعين، زار خلالها الأماكن المقدسة، وتعرف على المعالم الحضارية للمدن الفلسطينية،

ويؤكد الرحالة فابري على أن عدد اليهود في أثناء زيارته المتكررة، كان عدداً قليلاً، إذ لم يكن يتجاوز خمسمائة يهودياً، ولقد كذب هذا الرحالة مزاعم اليهود الذين ادعوا الاحتقار في العالم.

وتوالى الرحلات في أنحاء الشرق العربي؛ خاصة في مصر والأردن وسوريا وفلسطين، وتمثل رحلة شاطو برايان (Shateau Brayane) في بدايات القرن 17م، أهم الرحلات بل وأم الرحلات حيث دَوّن شاطو برايان كل مشاهداته ما بين (1807-1806م) في كتاب صدر عام 1811م بعنوان: (المسار من باريس إلى القدس)، هذا الكتاب الذي لقي اهتماماً كبيراً في فرنسا، ولقد عدّ قمة في أدب الرحلات آنذاك؛ ويجزم النقاد بأن هذا المؤلف يمثل بامتياز البدايات الجيدة للاستشراق الفرنسي الحديث، رغم أن العديد من الرحالة قد زار بعده القدس، وكتب عن تلك الرحلة إلا أن ما كتبه لم يجد نفس الصدى. يقول دانيال ريغ: "في خضم هذه الظروف تم إعداد نهضة جديدة، وراح كتاب مثل شاطو براين، ولامارتين أونرفال يجوبون الشرق وكأنهم يبحثون عن أصولهم.. العديد من الرسامين اكتشفوا نورا آخر وتباينات شديدة وشخصاً ومواقف تذكر بالأزمة الغابرة، قلت من هذه الأمصار، خرجت الأفكار الدينية التي أثرت أيما تأثير على أخلاقنا العامة والخاصة وقوانيننا ووضعنا الاجتماعي، وفي هذه الأمصار نشأت جل الآراء التي تحكمتنا، ومن ثم فإنه من المفيد بمكان أن نتعرف على الأماكن التي نشأت فيها هذه الأفكار والأعراف والسلوكيات والروح وطبيعة الأمم التي كرسها"¹⁵.

ولقد أغرم شاطو برايان بالشرق وبروحانياته وسحره منذ زمن، فهو كان قد قرأ (ألف ليلة وليلة) انكب على كتب التاريخ ولوحات الفنانين، ولذلك فهو لما سافر إلى القدس، كان يعرف ما الذي ينتظره هناك،

¹⁶ ينظر: سناء غرموش، القدس في عيون الرحالة الأجانب.

¹⁵ دانيال ريغ: الاستشراق العالم، ص32.

هذه المنطقة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والجغرافية والعمارية والإستراتيجية والتاريخية أو عن الحياة البيئية أو الشعبية التي كانت جميعها تحت مجهر البحث والنقاش.

يقول **حليفي شعيب**: "وقد نمت الأشكال التعبيرية الكلاسيكية وسط أجواء يتصادى فيها الاجتماعي بالديني وبالثقافي، ففتحتم أن تكتب النصوص السردية تلك، وهي مشدودة إلى مرجعياته وخطاب يساهمان في تأطير التجنيس بحيث سعت الرحلة إلى تحصيل كل ما راكمته منذ القرن الرابع الهجري تدويناً؛ فقطع إشكال تجنيسها شوطاً أولياً عن طريق تأطيرها ضمن تصنيف عام سيرف ب الرحلة.

يشير كلام **شعيب حليفي** إلى أن الرحلة تنسب إلى حقل السرد باعتبارها كتابة أدبية تتوفر على مكونات سردية وآليات كتابية تسمح للتصنيف أن يأخذ مشروعياته في خانة الأدب، وبالإضافة إلى كونها جنساً أدبياً فإنها تفتح نافذة على تسجيل أحداث تاريخية لأنها مصدرها وسجلا إثنوغرافيا، ومادة جغرافية، حتى إن بعض الجغرافيين يجزم بأن الرحلة ولدت من رحم الحقل الجغرافي، لأنها ترسم بالوصف عمران المدن والبلدان، لذلك فإن التعامل مع الرحلة يختلف من متخصص إلى آخر؛ كل من منظور حقله الدراسي، فالرحلة مؤثر لها بانفتاحها على خطابات يتم تنضيدها في إطار وعي مؤطر ببنية السفر وخلفية تغذيها محددات وصياغات مشروطة لا بد منها، الرحلة هي سيدة الأنا وصورة الآخر، كونها كائناً وفضاء ونتائج هذا التقاطع والتماس¹⁸.

وعلى العموم؛ فالرحلة نص لغوي محوّل قائم بعناصره، ورؤاه يقود إلى التعامل معه على أساس أنه نص مفتوح على خطابات متعددة تنتمي إلى العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، بالإضافة إلى انتسابه إلى

ولما طلب منه أحد أصدقائه وصف فلسطين قال ما يلي: "هل تعلم أية مهمة ألقيتها على عاتقي؟ ماذا أقول بعد كل ما قاله الآخرون، أية ألوان وأوصاف أرسمها لك، ماذا تستطيع أن تقول تلك الأماكن التي مرّ عليها السيد المسيح، القبر المقدس، القيامة، المكان الذين ظهر منه المخلص، أية انطباعات تستطيع هذه الأماكن أن تترك؟ حقا لا أعلم ولا أدري ما الذي أستطيع أن أحكي لك عن فلسطين، قمت برحلتني كي أعرف وأرى بنفسي، كم هو كبير جفاف قلبي..."¹⁷.

وفي رسالة أخرى من كتابه الرحالة الروسي **غوغول** لوحة تشكيلية جميلة بأحاسيسه وكلماته عن جمال فلسطين وغاباتها الشاسعة، وأشجار الزيتون والتين وأشعة الشمس من الفض إلى العسلي إلى الأزرق المسائي. وفي رسالة أخرى كذلك يكتب قائلاً: "أكتب إليكم لأخبركم أنني وصلت بسلام، رسائلك إلي كانت ضرورية، فقد أعانني على أن أتأمل نفسي بشكل أفضل"، توفي **غوغول** عام 1852م، أي بعد أربع سنوات من زيارته للقدس، وكان هذا آخر ما كتبه للأب **مانفيه** واصفاً إحساسه وشعوره عندما زار القدس متنقلاً إليها من بيروت قادماً من بلده.

4- أدب الرحلة:

يُعد أدب الرحلات والرحالة الغربيين امتداداً لحركة الاستشراق والمستشرقين، والاستشراق بذاته هو من تراث الإمبراطوريات الغربية التي كانت ولا تزال تحرص على دوام مصالحها في الجزيرة العربية. وحتى الرحلات العلمية ذات الطابع الأكاديمي كانت مرتبطة بالسياسة أكثر من ارتباطها بالعلم والحضارة، ونادراً ما حادت عن أهدافها السياسية، بالإضافة إلى الأهداف العلمية التي ساعدت كثيراً على توفير معلومات مهمة حول أوضاع

¹⁸ شعيب حليفي: أدب الرحلة في الوطن العربي، ص: 31-32.

¹⁷ سناء غرموش، القدس في عيون الرحالة الأجانب.

تشكيله وعرضه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يحاول النقد الإمام بالنص الإبداعي عن طريق حصره لتلك القنوات حتى يتمكن من كشف دلالات التشكيلات، لأن ترتيب النص بكيفية معينة يعني محاولة إبراز قضية جوهرية لا تريد ألفاظ اللغة الكشف عنها بطريقة مباشرة، وإظهارها بصيغة صريحة²¹.

يستنتج مما سبق أن العمل النقدي هو عمل إبداعي وحضاري لا يقل أهمية عن إبداع النصوص الأدبية، ولأن الرحلة يمكن تجنيسها إلى الأدب اعتمادا على طريقة كتاباتها، فإنه تخضع للنقد مثلها، مثل أي جنس أدبي إبداعي. وتمثل كتابات الرحالة والمستشرقين وخاصة إلى القدس موضوعا للنقد؛ لأن النقد منذ تأسس يمثل دليلا على الثقافة والأدب، حيث غايته الارتقاء بالنصوص الإبداعية إلى مستوى عال من الجودة.

وبناء على الوعي العربي لقيمة أدب الرحلات الاستشراقية فقد تم إعادة قراءة كتابات المستشرقين قراءة نقدية هادفة، ويمثل كتاب (الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء) لصاحبه سعيد إدوارد وترجمته من قبل كمال أبو ديب أهم مؤلف من وجهة نظر كثير من النقاد في حقل الاستشراق، هذا المؤلف المستشرق الذي ولد بالقدس، وأتم تعليمه الابتدائي والثانوي فيها وفي مصر، لينال البكالوريا في الولايات المتحدة، ويعمل أستاذا عام 1974م بجامعة هارفرد، وهو يعمل أستاذا للأدب الإنجليزي المقارن في جامعة كولومبيا في نيويورك، وقد ترجم كتابه (الاستشراق) إلى عدد من لغات العالم؛ الفرنسية، الألمانية والإسبانية والإيطالية والتركية والفارسية

التراث النثري بشكل عام، مادام يكتب سردا ووصفا معتمدا على المشاهدات والملاحظات والرؤى والانطباعات والمرويات التي تنحدر من ذاكرة السكان، وينهض النص الرحلي على صورة واقع يضم بنيات متلونة ومتصادية، وأصواتا مشبعة بأسرار ذاتية وأخرى غيرية¹⁹ بالإضافة إلى توظيف الأسطورة، وعلى أساس افتتاح الرحلة على خطابات متعددة، فقد قيل: "الرحلة هي إحدى الأشكال الكبرى للأدب"²⁰.

انطلاقا من انتساب الرحلة إلى الأدب، كونها تعرض مسرودة مفعمة بالوصف وبالانطباعات الشخصية التي يستحيل ألا توضع في قوالب مجازية واستعارية، لذلك يمتزج فيها الواقع بالمتخيل، وإن وجدت رحلة من غير انطباعات شخصية، فإنها حتما ستكون إما نصا تاريخيا أو جغرافيا بامتياز، وعلى أساس الرحلات المسرودة الواصفة المشخصة للمكان والزمان يجد النقد مدخلا لنقد الرحلات، فما مفهوم النقد؟

5- النقد:

يمثل النقد بإيجاز؛ عملية تعنى بإنتاج نصوص ذات طبيعة أدبية؛ فتتناول النصوص الإبداعية كموضوع للدرس، وتختلف كل عملية نقدية عن العمليات الأخرى، وذلك من خلال المنهج المستخدم والأداة المستعملة لغرض النقد، على أن النقد هو وسيلة تقييمية موضوعية لكل الأعمال الأدبية؛ والنقد بذلك يؤدي إلى عملية إنتاجية إبداعية أخرى؛ حيث يقوم النقد بمحاولة استيعاب النص الإبداعي وتجاوزه بوسائله وطرائقه النقدية الموضوعية، حيث يلتصق به ويتناوله تناولا داخليا يسمح بفحص المكونات والبنى التي تحتضن المعنى حتى يتمكن الناقد من معرفة القنوات التي مرّ منها المعنى وطرائق

²¹ ينظر: حسين خيري: سرديات النقد في تحليل الخطاب النقدي

المعاصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط/1، 2011، ص: 9-

¹⁹ ينظر: المرجع نفسه، ص: 32.

²⁰ Dictionnaire Universel des littératures, Paris,

Puf, 1^{ère} édition 1984, PZ, P4070

النصوص الاستشراقية، والشرق بنظر الغرب هو تاريخ وتراث من الفكر والصور والمفردات، وهكذا فإن كلا من هذين الكيانين الجغرافيين يدعم الآخر إلى حدّ ما²⁴.

وعلى أساس التدعيم؛ فقد أفادت كتابات الرحالة المستشرقين إلى القدس في كل قطاعات الحياة؛ إذ كل من كان له هدفا من القدس خاصة، ومن الشرق عامة، كان يلجأ إلى تلك الكتابات ليتبنى الحدود، والحياة الاجتماعية، والأوضاع الاقتصادية، والمجالات الدينية والعلمية والثقافية والتاريخية وأكثر سؤال يتردد على ذهن كل البشر، وخاصة الغرب؛ هو: ما السر وراء عظمة القدس؟، وقداسة تلك المدينة، ومكانتها بين المسيحيين والمسلمين واليهود؟ فماذا عن القدس في عيون من أثارهم سحر الشرق وغموضه؟ وكيف اتجهوا إليها من كل حدب وصوب؟ وكأن سحرها قد أتى بهم مسربلين بكل أعدادهم وعددهم ليكتشفوا كيف رأها عيون الأجانب وكذا العرب؟²⁵.

يقود هذا السؤال إلى جزء من الجواب وهو أن القدس هي معجزة مئات القرون الزمنية على امتداد أعمار الحضارات في بلاد ما بين النهرين ووادي النيل وفارس، وبلاد اليونان والرومان؛ وهي أرض ومدينة الثمار السماوية النورانية التي انتهت إليها الرحلات المقدسة الكبرى، أمّا الجزء المتبقي فلا أحد يستطيع الإجابة عنه، لأنه روحاني يختص بمشيئة الله بأن جعل القدس أرضا مقدسة شريفة ويكرمها بميلاد الأنبياء والرسول، ويجعلها قبلة، وحرما، وأرض المعجزات مصداقا لقوله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ

والمليزية واليابانية²²، وأخيرا إلى العربية عام 1981م وتوالى الطبقات إلى الطبعة السادسة عام 2003م؛ وهذا يدل على قيمة مضمون الكتاب في معظم أنحاء العالم.

ولعل المتمعن في عنوان الكتاب؛ يدرك بقليل تدبر وتأمل، أن الاستشراق يبدأ بالمعرفة ليتحول إلى سلطة ومن ثم إلى خطاب متعدد التوجهات والمآرب.

يقول سعيد إدوارد: "الاستشراق أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي (أنطولوجي) ومعرفي (إبستمولوجي) بين الشرق والغرب، وهكذا فقد تقبل جمهور كبير من الكتاب، وبينهم الشعراء وروائيون، وفلاسفة، ومنظرون سياسيون، واقتصاديون، وإداريون استعماريون، التمييز الأساس بين الشرق والغرب بوصفة نقطة الانطلاق (لسلسلة) محكمة الصياغة من النظريات والملاحم، والروايات والأوصاف الاجتماعية، والمسار السياسية التي تتعلق بالشرق، وسكانه وعاداته، وعقله وقدره"²³.

يقرّ سعيد إدوارد؛ بأن الاستشراق هو موضوع خصب، لكل الفنانين والمبدعين بل وحتى السياسيين والعلماء والباحثين كعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، والأدباء (شعراء وناثرين) وما إلى ذلك، وعلى هذا الأساس؛ تتفتح كتابات المستشرقين على النقد؛ الذي سيمحص دقتها، ويستجلي دلالاتها المخبوءة؛ وأهدافها الأساسية، فالرحلة تمثل تاريخيا ثقافيا، فمنذ بداية القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، سيطرت فرنسا وبريطانيا على الشرق والاستشراق، لذلك يسمى سعيد إدوارد كتابات هذه الفترة بالجسد الضخم وهو

²⁴ ينظر: إدوارد سعيد، الاستشراق (المعرفة، السلطة، الإنشاء)،

ص40.

²⁵ ينظر: حسين عمر حمادة، القدس في عيون الرحالة العرب

والأجانب، موقع إلكتروني: albwhsm.net/pinttthread

²² ينظر: إدوارد سعيد، الاستشراق (المعرفة، السلطة، الإنشاء)، تر:

كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت لبنان، ط/3،

2003، الصفحة الأولى من الكتاب.

²³ المرجع نفسه، ص38.

الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بركنا حوله لثريته من آياتنا ۖ إنه هو السميع البصير²⁶.

6- صورة القدس في كتابات الرحالة المستشرقين:

تعددت صورة القدس في كتابات الرحالة المستشرقين بناء على الدوافع الذاتية، والأهداف العسكرية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو العلمية، تعددت من صورة مشرقة إلى صورة حزينة، إلى الصورة المعجزة الأكثر روحانية؛ وكما هو معلوم فإن أدب الرحلات يعدّ من العلوم التي تساعد على دراسة التاريخ والجغرافيا والاقتصاد، وكثير من العلوم الأخرى لما يلقيه هذا الجنس السردى على الحياة الاجتماعية والدينية، والاقتصادية والثقافية لمختلف المناطق التي يزورها الرحالة.

ونظرا لأهمية القدس وقضيتها الدينية على وجه الخصوص؛ فقد استقطبت اهتمام عدد كبير من الرحالة الغربيين من جنسيات ومذاهب مختلفة من بلدان العالم، حيث كان لكل رحلة دوافعه الخاصة، وفي مقدمتها الدوافع الدينية - كما أنف الذكر- تلك الدوافع المتمثلة في الرغبة في الحج، وزيارة الأماكن المقدسة التي ارتبطت بالسيد المسيح - عليه السلام- تتبع خطاه، والوقوف على أوضاع المسيحيين واليهود بعد أن خضعوا لحكم المسلمين²⁷، وتحين نهاية الزمان في القدس، وتحقيق مصير ديني يجري فهمه بوصفه عبورا واغترابا عن العالم²⁸.

وتذكر الرحالة الإنجليزية مارجريت توماس (Margaret Thomas) وجود جماعة أطلقت عليها أميركان السور، لأن هذه الجماعة تسكن في أعلى أسوار القدس، وهم متشابهون ويعتقدون أن الله منحهم شرف الأسبقية لرؤية المسيح عند مجيئه، وعلى الرغم من أن معظمهم مثقفون إلا أنهم يفتقرون إلى التوازن العقلي²⁹.

شكلت الرحلة إلى القدس في بدايتها واجبا دينيا، وجزءا من إرادة الله، ومن شأنها من وجهة نظر الرحالة الفرنسي قسطنطين فولني (Constantine Volney) أن تمنح الغفران الكامل عن الماضي والمستقبل وتكفر عن سفاح القرى، واللواط، وفيها عفو عن إهمال الصيام، وغيرها من الفرائض الدينية³⁰ وكان لتلك الأفكار مفعولها الدعائي إذ دفعت بأفواج من المسيحيين (رحالة وحجاج) إلى زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، وفي مقدمتها القدس التي شهدت معظم المعجزات الربانية، ولقد حرص هؤلاء الرحالة في كتاباتهم على إبراز مكانة القدس الدينية؛ فتحدثوا عنها بمسميات تحمل دلالات دينية مسيحية ويهودية، وتجاهلوا الدلالات الدينية الإسلامية، بل لقد حاولوا طمسها لاستعادة مجدهم وإثباتهم هم فقط، مع العلم أن القدس لم تكن يوما لليهود، ولا أثر فيها لهيكل داوود- عليه السلام - كما يزعمون- والتاريخ يشهد بذلك.

يقول عصام شريح: "وقد جاءت شهرة القدس من أماكنها المقدسة، وفي مقدمتها الحرم الشريف الذي يضم المسجد الأقصى، ومسجد الصخرة. وفي القدس مساجد يبلغ تعدادها خمسة وثلاثين مسجدا، كما أن فيها مقابر أثرية مهمة وزوايا، وفيها ركن البراق الشريف،

²⁶ سورة الإسراء، الآية 1.

²⁷ ينظر: مروان فريد، دوافع الرحالة الغربيين إلى مدينة القدس وصورتها في كتاباتهم، موقع إلكتروني:

www.twtheq.com.thesis31/08/2015

²⁸ عبد الرحيم رائد: الدعاية الصليبية صورة المسلمين في الرحلات

الأوروبية والروسية إلى الأماكن المقدسة في العصور الوسطى

أتمودجا، مجلة جامعة الأزهر بغزة، كلية العلوم الإنسانية، مجموعة

13، عدد 1، ص162.

²⁹ Margaret Thomas : two years in palestine and syria, P60 : <http://en-wikipedia.org>

³⁰ Volney Constantine François : travels through syria and Egypt in the years (1783, 1784, 1785)

GG, Jan J. Robinson, London,

المسيحية، وأرض الإنجيل والمدينة المعشوقة عند الرحلة الأمريكي **إيمرسون** أندريسن (Emersson Anderson)، وهي مدينة الرب عند الرحلة الإنجليزي (Mande Olbach) وعاصمة الجنسين اليهودي والمسيحي عند الرحلتين **إدوارد روبنسون وإيلي سميث**، وهي المدينة المسيحية أوسالم عند الرحلة الإنجليزي **توماس جوليفي** (Thomas Joliffe) وأورشليم عند الرحلة الإنجليزي **هنري تريسترام**، والأرض الموعودة عند الرحلة الأمريكي **ويليام تومسون** (William Tomson)، وأرض بنيامين عند القنصل والرحالة البريطاني في القدس **جيمس فن** (James finn) وعاصمة الجنس اليهودي عند الرحلة الأمريكي **ود دوننج** (H.W Domming).

وقائمة الرحالة الذين زاروا القدس طويلة تفوق الحصر، والملاحظ أنه ولا رحالة من هؤلاء نسب القدس للمسلمين، وهذا دليل على أهم قصصها وفي اعتقاد بعضهم أنها يهودية، وفي اعتقاد البعض الآخر أنها مسيحية، ولو تتبعنا جنسيات هؤلاء لوجدنا كلها لا علاقة لها بالإسلام أو أنها تحمل أفكارا خاطئة عن تاريخ القدس الحقيقي، ونسبتها إلى المسلمين وبعضها منها إلى المسيحيين. ولعل ديانة بعضهم تكون إما مسيحية أو يهودية، لذلك فإننا نعتقد أن كتابات بعضهم كانت مقصورة لأغراض سياسية أكثر منها كتابات سردية.

إننا لا ندعي أن معظم الرحالة الغربيين الذين كتبوا عن مشاهداتهم للقدس، كانت لأغراض مدسوسة، أو دنيئة ولكن هناك دائما استثناءات، وربما كتب بعضهم بكل حب وموضوعية ما شاهدته، وعما شعر به من روحانية المكان، ولكن هناك من قام باستغلال ما كتب لأغراض سياسية، أو اقتصادية أو عسكرية، بناء على حساسية المكان، ولأن القدس تمثل تحدي العرب منذ طمع اليهود في امتلاكها وطردهم منها (مسيحيين

أما بالنسبة للمسيحيين ففي القدس من مقدساتهم **كنيسة القيامة** التي تقع وسط المدينة والتي تشمل درب أو طريق الآلام، و**كنيسة الجسمانية**، وأديرة ومقابر أخرى عديدة تملكها الطوائف المسيحية المختلفة، وأما اليهود الذين يزعمون اليوم أن القدس مدينتهم المقدسة، فإنهم لا يملكون أية آثار دينية أو غيرها في المدينة، وكل ما ينسبونه إلى أنفسهم فيها، هو الحائط الغربي للحرم الشريف الذي هو ملك إسلامي، ويزعمون أنه أحد جدران هيكل سليمان. أما الحقيقة التاريخية البارزة، فهي أن الحائط الغربي للمسجد الأقصى لا يمت بصلة لهيكل سليمان لأن ذلك الهيكل تعرض للهدم مرتين ولم يبق من أي أثر³¹.

وبعيدا عن النزعة العاطفية تجاه القدس كوننا مسلمين، فإن اختيار اليهود بأن يستوطنوا بالقدس راجع إلى دوافع دينية، وهو حسرتهم على تلك المكانة التي منحها الله لهم أكثر من مرة عبر تاريخ الديانات فقد كانوا شعب الله المختار، ولقد بعث اله لهم **التوراة والزبور** ولكن ذلك ما زادهم إلا شركا وكفورا، فشردهم الله، واصطفى أما أخرى بعث لهم رسله بالحق مبشرين ومنذرين، فأصبح اليهود نادمين على ما ضيعوا لذلك اختاروا القدس لأنها أرض المعجزات؛ أما عند الرحالة الغربيين فهي عاصمة يهودا، ومدينة المسيح، ومدينة **داوود** عند الرحالة الأمريكي **تشارلز وارنر** (Charles Warner)، وصهيون عند الرحالة الفرنسي **فليكس بوفت** (Felix Bowet)، وهي المدينة المقدسة الأسكتلندي **أندرو تومسون** (Andrew Thompson)، ومدينة الملك العظيم، وعاصمة الجنس اليهودي، وعاصمة المسيح المخلص عند الرحالة الإنجليزي **ماري روجرز** (Marry Rogers)، وهي عاصمة الديانة

³¹ عصام شريح: القدس هي القضية، مجلة الدوحة، وزارة الإعلام، دولة قطر، عدد 64، 1981، ص: 121-122.

تغير كحكمة قابلة للتدريس في الجامعات والكتب والمؤتمرات، والجامعات، ومعاهد السلك الخارجي من زمن أرنست رينان في أواخر الـ1840م (أ.ت) إلى الوقت الحاضر في الولايات المتحدة، لا بد أن يكون شيئاً أكثر صلابة ومتانة من مجرد مجموعة من الأكاذيب. ومن ثم فإن الاستشراق ليس استيهاماً أوروبياً فارغاً حول الشرق، بل إنه لجسد مخلوق من النظرية والتطبيق مابرج من أجيال عديدة، موضعاً لاستثمارات مادية كبيرة، وقد جعل الاستثمار المستمر للاستشراق، من حيث هو نظام من المعرفة بالشرق مشبكاً.. يمرّ خلاله الشرق إلى الوعي الغربي، تماماً كما أن ذلك الاستثمار نفسه ضاعف التقريرات التي تكاثرت منسربة من الاستشراق إلى الثقافة عاقمة، بل غنه قد جعل هذه التقريرات منتجة بحق³⁵.

وعلى هذه الحقيقة التي يقر بها إدوارد سعيد عن الاستشراق فقد أصبحت تلك الكتابات التي كتبها الغربيون خاصة المعادون للمسلمين أصبحت بمثابة تقريرات معتمدة في انطلاقة من أتوا بعدهم، بل إنها قد ترسخت في الوعي الغربي بأن القدس في العاصمة الحقيقية لليهود، ولا وطن لهم غير فلسطين، وتعاقبت الأجيال جيلاً تلو الآخر في احتضان هذا الاعتقاد، وكأنه حقيقة ثابتة، لذلك أصبح ينظر إلى العرب على أنهم ظالمون وأنهم يريدون أخذ ما ليس لهم، هكذا كان لأفكار الرحالة الغربيين المعادين للإسلام القدرة على تشويه التاريخ وتعويضه بالأوهام.

وبناء على قدرة الأفكار فقد أكد من جهة أخرى بوفت على قدسية المدينة والارتباط العضوي الوثيق وبين المسيح وديانته، فهي مكان عيش المسيح وعذاباته، وعلى جبالها وقف رسل السيد المسيح وإليه تتجه أفئدة المسيحيين، وهي ليست كباقي المدن ولا تساوي مع غيرها من المدن في المكانة والقدسية، لأن الرب هو الذي

ومسلمين)، ولقد تحدث معظم الرحالة عن فضل القدس ومكانتها الدينية عند اليهود والمسيحيين والمسلمين، فاليهود المشتتون في أصقاع العالم يوجهون قلوبهم وعقولهم ليل نهار نحو القدس، وهم يجزونون لرؤية إرثهم (هيكل داوود حسب زعمهم) يضيع في قبضة الغرباء، والقدس ينظر معظم الغربيين هي العاصمة الحقيقية للإسرائيليين، لذلك يقولون: لقد شيد سليمان عليه السلام البيوت وأوجد الحدائق والبساتين، وأقام البرك معجم عبود: واد يهو شفاط، تتعدد التفاسير لذلك، ينظر: هذا المعجم، فقد سمي بواد جهنم واد مريم واد سلوان...³². وعلاقة اليهود بالقدس لا تقتصر على الماضي بل تمتد إلى المستقبل، حيث يعتقدون ببعث الأموات (يوم القيامة) في واد يهو شفاط³³، أما الذين ماتوا ودفنوا بعيداً عن القدس فسيعانون من رحلة شاقة زحفاً تحت الأرض حتى يصلوا إلى هذا الوادي المقدس حسب معتقدتهم³⁴.

وحتى لا نكون نحن كذلك نتبع الأوهام والأساطير فإنه "ينبغي على المرء ألا يفترض أبداً أن بنية الاستشراق ليست سوى بنية من الأكاذيب أو الأساطير التي ستذهب أدراج الرياح إذا كان للحقيقة المتعلقة بما أن تجلى... الاستشراق أكثر قيمة بشكل خاص كعلامة على القوة الأوروبية - الأطلسية - بإزاء الشرق منه كخطاب حقيقي عن الشرق... إن ما علينا أن نحترمه ونحاول أن ندرك بأنه هو القوة المتلاحمة للخطاب الاستشراقي وعلاقاته الوثيقة بالمؤسسات الاجتماعية والسياسية المغررة، وقدرته المهيبة على البقاء، فأى نظام من الأفكار قادر، بعد كل حساب على أن يبقى دون

³² ينظر: سعيد جودت، أوهام التاريخ اليهودي، الأهلية للطباعة والنشر، عمان، ط/1، 1998، ص47.

³³ معجم عبود: واد يهو شفاط، تتعدد التفاسير لذلك، ينظر: هذا المعجم، فقد سمي بواد جهنم واد مريم واد سلوان...

³⁴ Things Seen in palestine, servis and Co limited, P :37-39. Goodrith

³⁵ سعيد إدوارد: الاستشراق، ص:41-42.

امتلاك؛ امتلاك سيد مستعمر كفاء لأرض شاسعة، ويقتبس له **سعيد إدوارد** قولاً يرى فيه بأن الإمبراطورية البريطانية بالنسبة إليه لم تكن مجرد "موضوع للطموح بل أولاً وقبل كل شيء، حقيقة تاريخية وسياسية واجتماعية عظيمة"³⁹.

أ- صورة القدس البائسة الحزينة:

تشير معظم التحليل والدراسات النقدية لكتابات معظم الرحالة الغربيين وكذا المستشرقين إلى أن كتاباتهم قد خلقت وجهات نظر عدائية حول الشرق والمسلمين والعرب حيثما كانوا وأينما وجدوا، لذلك يعتقد اللاحق من الأجيال " أن الإسلام كان لأوروبا صدمة دائمة"⁴⁰. ومن هؤلاء اللورد **كرومر** في كتابه (مصر الحديثة) والرحالة **نورمان دانيال** في كتابه (الإسلام والغرب)، بالإضافة إلى **توماس كارلايل** الذي لم يسلم القرآن من التشويه في كتابه، ليس كتاب الله الأصل، وإنما النسخة المترجمة، وإن كان يعترف بأن " كتاب الله صادق" رافضاً الصورة التي رسمها الغربيون **للسلطان** صلى الله عليه وسلم⁴¹.

وتضم **رنا قباني** رأيها إلى رأي **سعيد إدوارد** في أن قصص الرحلات الغربية حول الشرق كانت "جزءاً من استشراق حرض على الاستعمار"⁴². لذلك فهي في كتاباتها تطرح عدة افتراضات، ترى أن بريطانيا منذ القرن التاسع عشر، وعلى نحو متزايد، أنتجت كمية كبيرة من

اختار مكان القدس، وخصها بمجد متألق، وسمو مادي وأخلاقي وروحي، وهي المكان الذي سيحاسب فيه البشر في الآخرة بحضور المسيح³⁶.

وعلى الرغم من أنّ **السير ماندفيل** قد أشاد بسماحة المسلمين وحسن أخلاقهم، ومعاملتهم الطيبة للمسيحيين، وبأن إيمانهم قريب من المسيحية إلا أنه قد اتكأ على هذه الحقيقة من أجل استخدامها لتحقيق رغبته الشخصية، ليضيف أن هؤلاء المسلمين الطيبين يمكن تحويلهم للمسيحية بفضل رجال دين مسيحيين أو مبشرين أو محترفين³⁷. ولذلك قال **إدوارد سعيد** بأن: الاستشراق قد استعمل لخدمة أغراض سياسية أو حسب كلماته "لتمرغ انف الثقافة في وحل السياسة" ليؤكد أن الاستشراق انتقل من معناه الأكاديمي (تدريس اللغات الشرقية) وكنظام للمعرفة الأوروبية أو الغربية حول الشرق إلى أن أصبح مرادفاً للهيمنة الأوروبية أو الغربية حول الشرق، إذ حتى الكتاب الأكثر إبداعاً في عصرهم؛ مثل **فلوير (Flaubert)** والشاعر الرسام **جيرار دي نرفال، وسكوت (Scott)** قد خضعوا حسب ما تنبئ كتاباتهم إلى رؤيا سياسية محددة حول الشرق بنيتها الفرق بين المؤلف، أوريا نحن وبين الغريب (الشرق) هم³⁸.

وفي مسألة الولاء للغرب؛ نذكر **لامارتين، وتوماس إدوارد لورانس، وهاري جون فيلي، وويليام بالجريف، بالإضافة للورد كورزون (Lord Curzon)** الذي سادت في خطابه لغة إمبريالية واضحة، حيث يقر في كتاباته بأن العلاقة بين بريطانيا والشرق هي علاقة

³⁹ Said Edward: Orientalism, Penguin books, London, 1995, p.213

⁴⁰ Said Edward: Orientalism, Penguin books, op-cit, p.59.

⁴¹ Voir : Thomas Carlyle, Sartor on heros hero warships and the heroc in history, London, J.M, dent, 1974, P :299-305.

⁴² Rana Kabani: Imperial fictiobs, Europ's my this of orient, London, pandora, 1994, P10.

³⁶ Bovet : égypt., Palestine and phoenicia, P :111, 136, 139.

³⁷ السير جون ماندفيل (1322-1356م): صورة الإسلام

والمسلمين، موقع إلكتروني: <http://www.alhayat.com>

³⁸ المرجع نفسه.

حظيت أعماله بالإعجاب من قبل معظم الرحالة في بلاد الغرب⁴⁵.

وهذه صورة وثنية للكثير من الرحالة الغربيين كالإنجليزي لورنس أوليفانت⁴⁶ و الإنجليزي جامس (James Buckingham) وكذلك (Mandé) وريتشارد (Holbach) وإدوارد روبنسون وإيلي سميث وريتشارد مادن (Richar madden) والرحالة (Margaret Thomson) وفرانسوا فيكومت (Fronçois Vicomte) كل هؤلاء نظروا للقدس نظرة بائسة ومنفرة، ولا تستحق بذل الجهد لتفحصها وفي رأي إدوارد روبنسون وإيلي سميث، صورة حزينة ومنفرة، فهي برأيهما: "نالت روعتها ومكانتها لكونها عاصمة للشعبين اليهودي والمسيحي، وأصبحت في ظل الحكم التركي مدينة مهملة يحتشد في شوارعها بضعة مئات أو بضع ألوف من السكان يتناثرون داخل أسوارها، وقد صب الرب غضبه وسخطه عليها حتى الثمالة، حيث تجلس حزينة في الظلام والغبار"⁴⁷.

ونريد أن نصحح هذا الوهم؛ حيث ما كانت القدس يوماً لليهود، فالقدس عربية ولقد كان أول اسم عرفت به "أورسلام" وأور لفظاً آرامية قديمة تعني المدينة أو الساحة، وسلام تعني التحية والأمان والصلح والحكمة، فتكون معنى أورسلام إذن مدينة السلام أو دار السلام، لكن من المؤسف أن دار السلام هذه لم تعرف السلام الدائم في تاريخها بل إن المعتدين ارتكبوا من

⁴⁵ Rana Kabani : imperial fictiobs, europ's my this of orient, op-cit, P67.

⁴⁶ أوليفانت لورنس (1829-1888) مغامر وسياسي استعماري بريطاني، ينظر: عبد العزيز عوض: مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث (1831-1914)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط/1، ص70.

⁴⁷ Robinson et Smith : bibli cal, rearches in palistine, Vol 1, P :418-420.

كتابات الرحلة في محاولة مسعورة لمعرفة العالم تمكن من استعمارها، ومن منظورها فإن هناك من قام بالرحلة متنكراً، حيث استعمل ذلك التنكر كوسيلة سياسية لاختراق المجتمعات الشرقية من أجل التجسس وجمع المعلومات، وفي اعتقادها أن الصورة العدائية للإسلام قد تجسدت منذ القرون الوسطى، وقد كرسها الرحالة الأوروبيون من أمثال ماندفيل (Mndeville) وماركوبولو (Markopolo) لذلك فإن عصر النهضة في إنجلترا جاء على صورة مطردة متراكمة حول الشرق، صورة بشعة تتمركز حول الخوف من المسلمين، ولعل أقوى دافع حرض الإنجليز على السفر إلى الشرق هو الدين؛ حيث بعد وصول الاكتشاف العلمي والمادية الجديدة، تشير بأن المسيحية أصبحت في خطر⁴³. ولا بد من البحث عن جذورها التي يعتقدون أنها موجودة بالقدس ومن أكثر الذين تحمسوا للرحلة إلى الشرق تشارلز داوثي (Charles Doughty)، هذا الرحالة الذي يشير رنا قباني بأنه كان أشد مقال للإسلام وفي أثناء زيارته إلى الجزيرة العربية التقى مسافراً إيطاليا دخل إلى الإسلام وقرأ القرآن، ولما علم داوثي بذلك قال ساخطاً: "ما أدهشني أن أحدا ولد في البلاد الرومانية، وتحت اسم السيد المسيح، كيف يترك هذه الامتيازات ليصبح أحاً للبرابرة الأسيويين في دين أحقق"⁴⁴.

وتشير أن داوثي هو مستكشف وشاعر إنجليزي مشهور، رحل إلى فلسطين وسوريا ومصر عام 1870 م وبعد أن تعلم العربية في دمشق ارتحل إلى مكة متخفياً في قافلة من الحجاج، قضى سنتين متجولاً في الجزيرة العربية يجمع الأخبار، ويحدد مواقعها، ويصف مدنها، ولقد

⁴³ ينظر: المرجع نفسه، ص12 إلى 17.

⁴⁴ المرجع نفسه، ص103-106.

القيامة فيها، وبالتالي لم يظهر أي كيان سياسي لليهود في فلسطين لأن فلسطين هي بلاد العرب⁵⁰.

وبعد هذا الحكم جاء الفتح الإسلامي وفتح القدس لأسباب دينية وإستراتيجية؛ واقتصادية؛ وبقي أهل إيليا في أمان في خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- وعاش العرب (مسيحيون ومسلمون) في أمان، وعلى الرغم من توالي الخلفاء الراشدين، فالأمويين فالعباسيين، فالأتراك العثمانيين، وحكام فاطميين وإخشيديين وطولونيين... بقيت القدس مدينة عربية صافية تحفو إليها نفوس المسلمين وعقولهم في مشارق الأرض ومغاربها، وبدخول الإسلام إليها تم تشييد المسجد الأقصى وأصبحت أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين⁵¹

إن الشرق الحقيقي الواقعي ليس هو الشرق الذي كان في ذهن الرحالة الغرب؛ إذ تصوره من خلال قراءتهم لكتاب (ألف ليلة وليلة) فاعتقدوا بذلك التصوير الخيالي، فجاءوا إلى الشرق مدفوعين بالجنس بتشخيص الشرق كامرأة أو صبي كما صور إدوارد دلين أول مشهد له في مصر قائلاً: "حين اقتربت من الشاطئ تملكني شعور بأني عريس شرقي، يوشك أن يرفع حجاب عروسه"⁵²، فالملاحظ أن كتاب (ألف ليلة وليلة) قد أحدث إثارة أدبية " أثرت على الأدب الإنجليزي، فأصبحت الحكايات الشرقية مصدر خيال رومانسي للشعراء وكتاب الرحلات والروائيين، في حين إن الشرق الرومانسي فضاء متخيل، لا علاقة له بالشرق الواقعي"⁵³.

المجازر فيها ما يندى له جبين الإنسانية خجلاً، وكانت مدينة مقدسة لدى البيوسيين الذين هم فرع من الكنعانيين العرب، لأنهم كانوا يعتبرونها مدينة إلههم إيل عليون أي الإله العلي، أما اليهود الغزاة، فقد انتحلوا الاسم الكنعاني للقدس وأطلقوا عليها اسم "أورشلام" أو "أورشلم" وأصبحت هذه اللفظة مع تقادم الزمن أورشليم التي يتمسك بها الإسرائيليون اليوم⁴⁸.

ولقد تعرضت القدس إلى غزوات عديدة، إذ لم يكن اليهود هم الوحيدون الذين دخلوا فلسطين بشكل طارئ ودون أن يتمكنوا من التجذر في الأرض، فقد احتلها كذلك الفرس حيث سمح ملكهم قورش لليهود بالعودة إلى فلسطين، كما سمح لهم الملك دارا كذلك بإعادة بناء سور القدس وهيكل سليمان، وفي أثناء غزو اليونان لفلسطين بقيادة ألكسندر المقدوني (332 ق.م) لم يغير من وضع اليهود وكذلك فعل خلفاؤه البطالسة، وعندما احتل الرومان بلاد الشرق دخل بومبي فلسطين وهدم سور أورشليم فحدث شغب ضد الحكام من قبل اليهود، فقام الإمبراطور هندريانوس بتدمير أورشليم وحرث أرضها بالمحارث، وهدم الهيكل للمرة الثانية والأخيرة. واليهود يطمحون اليوم لبناء الهيكل الثالث مكان المسجد الأقصى المبارك⁴⁹.

يتضح من خلال هذه المعلومات التاريخية أن الصبغة اليهودية زالت تماماً من فلسطين ومن القدس على وجه الخصوص، حيث على أنقاض المدينة القديمة، شيّد الرومان مدينة جديدة أطلقوا عليها اسم إيليا نسبة إلى الإمبراطور إليوس هدرينوس، ولما جاء الإمبراطور قسطنطين على عرش الإمبراطورية الرومانية وغدا مؤسس الدولة البيزنطية التي اتخذت القسطنطينية عاصمة لها، أصبحت إيليا مدينة بيزنطية، وشيدت أمه هيلانة كنيسة

⁵⁰ ينظر: نفسه، ص 119.

⁵¹ ينظر: نفسه، ص 120.

⁵² رنا قباني: أدب الخيال الإمبريالي، ص 67.

⁵³ ينظر: المرجع نفسه، ص 29-30.

⁴⁸ عصام شريح: القدس هي القضية، ص: 117-118.

⁴⁹ ينظر: عصام شريح، المرجع السابق، ص 119.

تفرق بالإحباط، وأراضيها قاحلة ووعرة، وسيولها جافة، ومرتفعاتها حادّة، وهي بعيدة عن أية طريق رئيسة، ولا ينظر إليها كمركز تجاري، ولا مركز استهلاكي⁵⁵.

لقد رثى معظم الرحالة قدس اليوم، القدس التي حاربت الجبابرة، وشهدت المعارك الضارية، تحولت إلى إيليا كابوتلينا⁵⁶ الوثنية وليست أورشليم المقدسة، ومشهدا الآن لم يعد ذلك المشهد في ظل حكم سليمان، ولا تشبه أننا في قمة ازدهارها، قال: "إن لدينا إثباتات في ضوء سجلات المحاكم أن هذه البلد، كانت قبل زحف الجيوش إليها تشبه حدائق إيدن، خلف بركة مقفرة لكن المشهد الحالي (لإيهودا) يجسد تحذيرات الأنبياء لحقيقتها المرعبة"⁵⁷ حتى أصبحت بعيدة عن صفة مدينة الملك العظيم، وتغيرت كثيرا على أيدي البابوية وأيادي المسلمين... لقد تعجبت وتأملت وصليت وبكيت، وجدّدت عبادتي ليحفظ المدينة ويعيد أمجادها السابقة⁵⁸.

وحتى مع الحكم الصليبي الأجنبي الذي عمّر طويلا حوالي 200 سنة، ظلت القدس عربية، وقد حررها صلاح الدين الأيوبي، وخرج الصليبيون من القدس وفلسطين وبلاد الشام، وتشير الدراسات والحقائق التاريخية إلى أن معظم أجزاء السور الحالي للقدس، بناه السلطان العثماني سليمان القانوني حيث دامت مدة البناء خمس سنوات، وبلغت مساحة الأرض التي تحتلها القدس عما يربو عن 31 كيلومترا مربعا وهذا حتى عام 1948م، وبمساعدة البريطانيين لليهود، أصبحوا في كل مرة يحتلون جزءا من الأرض المقدسة، ومع السياسة الاستعمارية الحالية فإنهم يريدون احتلال القدس ككل بتشديد الخناق على العرب من أجل مغادرتها وغايتهم تهويد القدس،

ولما لم يجد الرحالة ذلك الشرق الرومانسي كما تخيلوه من خلال قراءاتهم؛ تحولت تلك الصورة الخيالية الجميلة عن القدس إلى صورة حزينة غلبت على كتابات معظم الرحالة المستشرقين، ولعل السبب كما سبق الذكر إلى تلك التمثيلات والأفكار المسبقة عن القدس مدينة الله؛ ولقد غلب على هذه الصورة الطابع الرومانسي أو الطابع الأسطوري. بالإضافة إلى أن أولئك الرحالة هم نتاج مجتمع غربي ومدينة غربية مغايرة تماما لما هو موجود في الشرق، وهو الأمر الذي جعلهم لا يدركون أو لا يستوعبون الفروق الحضارية بين الغرب والشرق، وبين العمارة المسيحية واعتقاداتها، وبين ما هو موجود في الشرق، إذ تكمن قيمة العمارة الشرقية في قدسيّتها ودلالاتها الروحية أكثر من حجم وزخرفة العمارة المسيحية، وهذا لم يستطع فهمه ولا إدراكه الرحالة الغربيون.

وهناك من الرحالة من كان رافضا لواقع القدس تحت الحكم الإسلامي باعتبار ذلك مساسا بشخصية القدس الأسطورة المستندة إلى إرث يهودي ومسيحي رسمه الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) بلمسات أسطورية خيالية لا تلتقي مع الواقع، ومن أجل الأفكار الخيالية القبلية، وتحقيقه واقع القدس خاصة بعدما تعرضت إلى الاحتلال الصهيوني، ناهيك عن الحروب الصليبية وتوالي أكثر من محتل عليها، وجد معظم الرحالة المستشرقين أن صورة القدس المشاهدة لا تنسجم مع عظمة وهيبة الصورة التي رسموها للمدينة في ضوء ما قرأوه، وما سمعوه عنها؛ فكانت صورتها أقل بكثير مما توقعوه، ونظروا إلى المدينة بمناراتها الإسلامية على أنها تشويه لقدسيّتهم التي وصفوها تارة بأنها مدينة داوود، وتارة أخرى بأنها مدينة المسيح⁵⁴. ولذلك قال الرحالة قسطنطين الفرنسي: "لسوء الحظ بعد ما حلّ بالقدس من مصائب، أصبحنا لا نصدق أن هذه هي القدس فالمدينة

⁵⁵ Benjamine of Tudela, p.72

⁵⁶ معجم عبود، ص728.

⁵⁷ Joliff: Letters from Palestine, p.102.

⁵⁸ Androw: Travels in bible, lards, p:153-154.

⁵⁴ Bovet: Egypt, Palestine, phonicia, p.95.

وتأكيدا للصورة المشرقة للقدس، يقول الرحالة (Thomas Andrew): "وعلى حين غرة شاهدنا القدس تنبسط أمام أبصارنا، بدا لنا جبل الزيتون أولا ثم رأينا الأسوار القديمة، أنظر، هاهي قبة مسجد الصخرة، ترتفع فوق سواها من أبنية المدينة، يا له من منظر مجيد رائع، منظر المدينة المكرمة، والشمس تلقي عليها أشعتها الساطعة من جهة الغرب، ها قد تحقق لنا حلم العمر كله، أوقفنا خيولنا، وأخذنا نمنع النظر خاشعين كأن على رؤوسنا الطير"⁶².

وأضاف الرحالة الأمريكي (Andrew

Emerson) مسجلا إعجابه بالقدس فقال: "في هذه البقعة يقابل الإنسان ربه على جبل صهيون وفي مدينة القدس، وعندما أنظر إلى المدينة المقدسة أتخيل أنني في حلم فهي جميلة وتبعث الأمل في العالم أجمع، وهنا يتم تمجيد الرب، ويتم استحضار الأحداث التي وقعت قبل آلاف السنين، وتفيض هنا الروح، يتوجب هنا شكر الرب يهوه⁶³، على الخلاص الأيدي للبشرية، والقدس نقطة مركزية وهي موقع مراقبة ونقطة إشعاع، إن ذكريات ستة آلاف سنة ماثلة أمامي وتعكس نفسها على المرأة مشعة (متوهجة)، يا إلهي إنه الصليب الدامي مرفوع ومرسوم ويشع طاقة، من هنا نأتي كحجاج للمشاهدة والقراءة، ولنشعر، ولنجدد العهد، ولزيادة طاقتنا ولننمي نعمتنا، ولتأمين وتنمية الرسولية الإلهية، ولتمجيد الرب وإنقاذ الأرواح"⁶⁴، أما الرحالة الإيطالي (Mariti Giovanni) فقد قال: "لقد نظرت عيوني بحرص

يقول عصام شريح: "ولأن القدس اختصارا هي (القضية) ولأن الصراع على القدس هو الصراع العربي-الصهيوني بكل معانيه وأبعاده التاريخية والحضارية والسياسية والدينية، ولأن الحديث عن القدس عودة إلى جذور هذا الصراع... ولكي لا ننسى في زحمة المتاهات اليومية، القضية الأساسية، عدنا إلى طرح قضية القدس - أي القضية العربية- للتذكير بها؛ لأن الذكرى تنفع المؤمنين"⁵⁹.

ب- القدس المشرقة:

ركز عدد محدود من الرحالة الغربيين على الصورة المشرقة للقدس وفي مقدمة هذا التركيز، قدسية المدينة بغض النظر عما آلت إليه الأمور فيها من خراب سببه الاحتلال اليهودي الصهيوني، وبغض النظر عن الأفكار السوداوية التي يريد غرسها بعض المغرضين لتشويه صورة القدس، فقط لأنها تحت حكم العرب، ففي نظر الرحالة البريطانية ماري روجرز (Mary Rogers) القدس هي مدينة الملك العظيم، وهي مدينة جذابة تستطع الشمس عليها، وتضيء أسوارها البيضاء الموشحة بألوان الزيتون الأخضر⁶⁰.

ولقد دفع منظر القدس ماري روجرز للصراخ "أورشليم"⁶¹ مع العلم أن مار أته ماري ليس تلك المدينة أيام المسيح، فقد تغيرت كل معالمها تقريبا، واحتل الحرم وسط المدينة، وهناك مسجد عمر -رضي الله عنه- وقبة الصخرة الذي يلقي تبجيلا من المسلمين أجمعين، وباعتباره معبد سليمان فإنه يلقي تقديسا من المسيحيين واليهود هم كذلك.

⁶² الموسى رحلات، ص 228.

⁶³ إله العبرانيين، ينظر: معجم عبود، ص 929.

⁶⁴ Andrew: Travels in bible, lards, P:99

⁵⁹ عصام شريح: القدس هي القضية، ص 123.

⁶⁰ Rogers: Domestic life in Palestine, P:37-38.

⁶¹ Ibid, P43.

فقط، نستطيع أن نتوقع بجدية رؤية العرب يتخذون مكانا في صفوف الحضارة التي أخرجهم عنها ردحا من الزمن محمد وكتابه، أكثر من أي سبب آخر⁶⁹.

لقد مثلت كتابات وليام بالجريرف جسرا لوصول البلدان غير المسيحية، وسلاحا لحماية نشاطاته، أما القوة الاستعمارية فقد رأت أن كتابات بالجريرف هي وسيلة لتحويل المواطنين الفقراء من جذورهم الدينية والثقافية، وقضيتهم لتقبل المستعمر كأخ متحضر ومتفوق، بدلا من رؤيته عدوا محتلا⁷⁰.

وعلى العموم؛ فإن كتابات معظم الرحالة كانت على شكل روايات شخصية في قالب أدبي، غلبت عليه الانتقائية والشخصية على الموضوعية في أعمالهم، حيث كانت موجهة إلى القراء الأوربيين بمستوياتهم المختلفة؛ فمنهم من بذل قصارى جهده لضمان المصالح السياسية، ومنهم من زوّد قراءه بصور تظهر أن الإسلام والمسلمين هم أعداء للمسيحيين ولليهود، أما الأدباء والشعراء فقد عرضوا لهم شرقا رومانسيا يلي خيالهم⁷¹.

وبعيدا عن الأحكام العاطفية، وعن ثنائية التمييز العنصري شرق غرب لسعيد إدوارد وكل متتبعيه كالباحثة رنا قباني يرى هومي بابا (Homi Bhabha) أن طريقة التفريق هذه في دراسة أدب الرحلات من قبل النقاد، لا تترك مساحة للعلاقات البيثقافية، أو كما يسميها هومي بابا التهجين (Hybridity)، حيث يتبنى منهجا تفكيكيا فهمه "للتعددية المكان" في الموقع الثقافي يتوسل مساحة نظرية تتجنب مثل هذا التقسيم الثنائي في كتابه (موقع الثقافة) يصف الثقافات "ما بعد الاستعمارية" بالهجين حيث يمكن الإفصاح عن العناصر

وبتعجب إلى هذه المدينة القديمة التي شهدت المعجزات، وعلى أرضها قَدّم الأوروبيون أنفسهم قربانا لها⁶⁵.

ما يستنتج من الصورتين للقدس، الحزينة البائسة أو المشرقة هو أن معظم الرحالة والكتّاب الأوربيين كانوا يتناقلون شهادات بعضهم البعض في صورتهم المشتركة حول الشرق، لذلك تؤكد رنا قباني أن هذا الميراث قد صبغ معظم كتابات الرحلة الأوروبية حول الشرق بالتحيز المزيف⁶⁶، ويتبنى محمد طه في أطروحته (الشرق وثلاثة رحالة فيكتوريين، 1989) نظرية إدوارد سعيد المتمثلة في أن معظم الرحالة الفيكتوريين إلى الشرق الأوسط صوّروا الشرقيين من خلال إيديولوجيا الإمبراطورية، تلك التي كانت ملوثة بمشاعر التفوق الأوروبي.

ولقد صوّر شاطو برايان (Château

Briand) ولامارتين (Lamartine) الشرق مكانا ملائما للمطامع الفرنسية الاستعمارية، أما وليام بالجريرف (William Belgrif) فقد كان مبشرا يسوعيا

أرسل إلى بلاد العرب في مهمة سياسية، وحديثه عن العرب مصطبغ بالسياسة، وعقيدته التبشير المسيحي في القرن التاسع عشر⁶⁷ لذا يمكن اعتباره عميلا لقوة أوروبية، قال في مقدمة كتابه (قلب بلاد العرب) ميرزا هدفه الخاص من رحلته وهو الرغبة في جلب الماء الراكد للحياة الشرقية وتوصيله بالنهر المتدفق للتقدم الأوروبي⁶⁸، ومن الدلائل على معاداته للإسلام والمسلمين قوله: "حين تختفي مكة والقرآن من بلاد العرب، فثمة في ذلك الوقت

⁶⁵ ماريتي جيوفاني رجل دين ورحالة إيطالي زار قبرص وسوريا وفلسطين، ونشر رحلاته عام 1769.

⁶⁶ رنا قباني: الرحلة الإمبريالية إلى الشرق، ص 139.

⁶⁷ Muhammed El taha : the orient and victorian travelers kinglike, Bruten and palgrave, published doctoral university, 1989, p4.

⁶⁸ Ibid, P70.

⁶⁹ Mehammed El taha : the orient and victorian travelers kinglike, Bruten and palgrave, P182.

⁷⁰ ينظر: محمد طه، رحلة الفكتوريين الثلاثة، ص: 170-171.

⁷¹ المرجع نفسه، ص 189.

لشاطو برايان⁷⁶ و(إيوين) للألكسندر كينجيليك، و(رحلة إلى الشرق) لنرفال، حيث إن ما يربط هذه الأعمال من وجهة نظر سيرين هاوت هو أولاً "عبور الحدود الثقافية" بغض النظر عن هوية الرحالة والمكان الذي رحل إليه، وثانياً الميل للانتقاد بشكل غير مباشر للثقافة الأوروبية⁷⁷ محاولة إثبات أن نقد الثقافة الأوروبية أحرز له مكاناً في أدب الرحلات الأدبية الغربية⁷⁸.

ففي كتاب مونتييسكو (رسائل فارسية) نجد التلاقي بين العوالم الشرقية والغربية معبراً عنه من وجهة نظر سيرين هاوت بأسلوب تصفه "بالمونولوج الثقافي"، حيث يعمل هذا المونولوج كإستراتيجية لانتقاد المجتمعات الغربية والشرقية على حدّ سواء، حيث تمثل لنقدها بتلك الأدوار لكل من آسبك (Usbek)، وريكا (Rika) المتعلقة بالقضايا الأخلاقية والاجتماعية التي جسدها كل من هذين البطلين في تلك الكتابات، وبناء على هذا الحوار تنقد الشرق والغرب معاً نقداً ثقافياً؛ كتعدد الزوجات، وحبس النساء في البيوت في العالم الإسلامي، وتحريم الطلاق في البلدان الكاثوليكية، وتجارة العبيد والدستور الغربي للبعكورة، وأخيراً احتلال لفاتحين للعالم الجديد⁷⁹.

وبالنسبة لكتاب شاطو برايان (يوميات رحلة من باريس إلى القدس) فمن منظور سيرين هوت يمثل هذا الكتاب هجاءاً صامتاً عبر طرق مونولوجية يحاول فيه الكاتب إخفاء نقده للممارسات الثقافية والسياسية الأوروبية في الداخل أو الخارج⁸⁰. لقد انتقد شاطو برايان

المتناقضة والمختلفة؛ وفي كتابات هذا الناقد، وجد أنه يدافع للتحويل: "مكان التهجين بلغة الاستعارة، حيث إن بناء موضع سياسي يعني جديداً، لا الذات، ولا الآخر يحوّل توقعاتنا السياسية بشكل صحيح، ويغير كما ينبغي الصور المطلقة من إدراكنا لمرحلة السياسة"⁷².

7- نقد سيرين تشافيك هاوت:

وبعيداً عن التعميمات الجارفة، فليست كل كتابات المستشرقين تحمل عداءاً للإسلام أو المسلمين، وليست كلها مشوهة لصورة القدس، ومن بين التحديات الغربية لتعميمات سعيد إدوارد نجد كتاب (رؤية أوروبا من الخارج، 1994) للناقدة سيرين تشافيك هاوت التي تصف منهجها بأنه مضاد لفوكو الذي أقام عليه سعيد إدوارد منهجه؛ فهي بدلاً من أن تؤكد الفرق الاستمولوجي بين القرنين (18م-19م) قامت بجمع نصوص من كلتا الفترتين، تشترك في الإيديولوجيات والاتجاهات⁷³ حيث اختارت خمسة أعمال لدراستها؛ (رسائل فارسية) لمونتيسكيو (Montes Quieu)⁷⁴ و(مواطن العالم) لأوليفر غولد سميث⁷⁵ (Oliver Gold Smith) و(يوميات رحلة من باريس إلى القدس)

⁷² Homi Bhabha : the location of culture, London, routledge, 1994, P25.

⁷³ Syrine Chafik Haut : viewring europe from the outside, cultural enconers and european culture critique in the eigteeth, century psendo oriental travaloque and nineteenth century, voyage en orient doctoral dissertation, colombia university, 1994, published later in 1997, by peter lang, P6

⁷⁴ البارون تشارلز دي مونتييسكو كاتب وفيلسوف فرنسي، عاش

في عصر التنوير كتابه (رسائل فرنسية) نشر بالفرنسية عام 1921

⁷⁵ أوليفر غولد سميث (1730-1774) كاتب وشاعر وروائي

إرلندي كتابه (مواطن العام) عام 1762.

⁷⁶ شاطو برايان روائي فرنسي ومن أبرز المبشرين بالرومنسية في الأدب الفرنسي.

⁷⁷ Syrine Chafik Haut : viewring europe from the outside, P:1-2.

⁷⁸ Ibid, P47-48.

⁷⁹ Voir: Ibid, P89.

⁸⁰ Voir: Ibid, 139.

بالإسلام، ويؤمن بأن الشرق هو مصدر الأديان، كما يعتقد أن الأتراك والعرب المسلمين أكثر تسامحا من الكاثوليك الغربيين⁸⁵، ولقد دافع نرفال أيضا عن ظاهرة تعدد الزوجات في الإسلام، بحيث يقر بأن العلاقات بين الرجال والنساء في الشرق عموما أكثر براءة من نظيراتها في أوروبا، ليس هذا فقط، بل إنه يحرم كذلك الإنجازات الشرقية مؤكدا أهميته ما لم يتفطن له الرحالة الغربيون الذين زاروا الشرق أو أهملوها حيث يقول: "إن المعرفة الأوروبية مدينة لترجمات العلماء العرب لنصوص الفلسفة اليونانية القديمة" فالواضح أن نرفال على لسان جيرار يفضل الشرق على الغرب، فالشرق عنده أسمى من الغرب في ميزتين هما: "التمازج الاجتماعي والتسامح العرقي"، ولقد أعجب بالشرق إلى حد اعتقاده أن "الطريق الموثوق للأوروبيين لإنجاز التقدم، هو التحول إلى الإسلام" معترفا بأنه ضد الإرهاب السيكلولوجي أو العسكري الذي مارسه الاستعمار الإنجليزي والفرنسي في الشرق⁸⁶.

8- نقد كاترين سامبسن:

كاترين هي صاحب الكتاب النقدي (الحج الأدبي الرومانسي إلى الشرق، 1999) منهجها يتحدى تفسير سعيد إدوارد للنصوص الاستشراقية، تدرس في كتابات افتتان البريطانيين بالشرق، متبعة الصور التي تشكل فيها إدراك الشرق تمثيلات البريطانيين لذواتهم وتمثيلاتهم للاختلاف الديني؛ أثناء التوسع الإمبريالي، اختاره كاترين ثلاثة نماذج لتقدمها: حج الطفل هارولد بايرون (Lord Byron) وكتاب الطلسم لوالتر سكوت (Walter Scott) وسرد ذاتي للحج إلى المدينة ومكة لريتشارد بيرتن، وأول ملاحظة تصدرها كاترين حول هذه النماذج الثلاثة هي أن الصورة الاجتماعية لهذه النصوص الاستشراقية الرومانسية "غامضة، وغير متصلة،

نابليون بوناپرت في عدة مناسبات وسياقات مختلفة، فتارة يقارنه بحاكم مستبد في تركيا، وتارة أخرى يشبّهه ببلسير (Bebisarus) أشهر الإمبراليين اليونانيين، بالإضافة إلى انتقاده للسلوك الاستعماري الإنجليزي، وخاصة في أثناء بحثهم عن قبر آغامنون وبعض المعابد المحطمة، مشيرا إلى سرقة بعض الآثار من قبل اليونانيين وكذا الفرنسيين (11 عمودا من المعابد لليونان، تماثيل ولوحات سرقتها الفرنسيون)⁸¹.

ولقد نجح غولد سميت في كتابه (مواطن العالم) في تصوير عالم جديد حيث تضمن هذا الكتاب رموزا من الثقافتين الشرقية والغربية، تدل على التواصل وتبادل المعتقدات المختلفة إلى جانب هذا النقاش تصرح سيرين أن الحوار قد وظف كإستراتيجية سردية لانتقاد الثقافة الأوروبية⁸². حيث انتقد سميت الأوروبيين بافتقارهم للكرم وللطيف المعاملة.

ويمثل نقد الهيمنة الإنجليزية في كتابات غولد سميت سمة مميزة لهذا العمل، وعلى لسان بطله الطانجي (Altangi) يعلن سميت بمقته للحرب فقول: "ما من شيء يمكن له العداوة مثل الحرب في العالم الجديد"، لذلك فهو ينتقد الأنشطة الاستعمارية البريطانية والفرنسية في أمريكا الشمالية (1763م-1754م)⁸³.

وفي كتاب (رحلة إلى الشرق) تجادل سيرين هوت كاتبها نرفال الذي يخفي شخصيته وراء شخصية جيرار الذي يدرك أن الأفكار الأوربية المعطوية حول الشرق، تضرب بجذورها في القرن الثامن عشر⁸⁴. ومن خلال تلك الكتابات تقرر سيرين بأن نرفال متأثر

⁸¹ Voir: Ibid, P200.

⁸² Syrine Chafik Haut : viewing europe from the outside, P:281.

⁸³ Voir: Ibid, P:287-288.

⁸⁴ Voir: Ibid, P235.

⁸⁵ Voir: Ibid, P :358-361.

⁸⁶

جوانب اللامألوف والغرائبي وبعض التقاليد المغايرة، إضافة إلى بنية عقل الغربي ومعتقداته الدينية حيث يهتم الشرق من منظور ديني إلى بلاد الشرق وبلاد الغرب وهو نفس المنظر الذي هيمن وبتفاوت في جل الرحلات الاستشراقية، واستحكم في رؤى الرحالة وصياغة الآخر⁸⁹.

أما الصورة الثانية فهي بعدية، تتعدل بعد زيارة الراوي الرحالة إلى الشرق، وبعد انتهاء الرحلة تحافظ على بعض من الصورة الذهنية الأولى، وتحاول أن نرسخ الواقع كما هو، ولعل المرحلة الحاسمة هي لحظة تحويل الآخر من التجربة المعيشة إلى الكتابة التخيلية، فيصير إما إلى قيم وأفكار وأحكام، أو إلى عجائب وخوارق وعادات غريبة، أو يصبح مجسدا للاختلاف، فالراوي ينظر إلى الآخر من زاوية نظر تمييزية مقارنة تعتمد على معياري الانسجام والاختلاف باعتبارهما سؤالا خلفيا يقف وراء صورة الآخر... هل تنسجم أم تختلف مع "الأنا"⁹⁰.

وعلى أساس الأنا والآخر ترى كاترين سامبسون بأن (حج الطفل هارولد) يمكن أن يقرأ كمسعى يحاول فيه بايرون إنشاء روايته الرومانسية الشخصية الخاصة، بعيدا عن العقيدة الدغمائية التاريخية للمسيحية، إنه يعكس شكا دنيا متزايدا في الغرب، تجاه تساؤل أحدثه الالتقاء بالآخر الديني، حيث إن الشرق بعد تصحيح الصورة الذهنية القبلية أصبح مكانا يمكن أن يجد فيه البريطاني اعتناقا روحيا عبر نبذ الهوية الدينية التقليدية، هذا من زاوية نظر بايرون، ولقد حاول هذا الأخير تفادي نظرة السمو والاستعلاء للبريطانيين وللانجليزيين على الشرق، التي كانت تعكس صورا سلبية للآخر الشرقي، وتمجد التفوق الديني الغربي، فشرق (بايرون) من وجهة نظر كاترين يعكس الاشتياق

ومتعددة" مستعينة في نقدها هذا بنقاد من أمثال إعجاز أحمد (Aigaz Ahmed) وجيمس كلفورد وهومي بابا، هؤلاء النقاد الذين لم يتفقوا مع مواقف إدوارد سعيد حول حقيقة الكتابات الاستشراقية وحول تعميمه للأحكام على معظم الكتابات، حيث يأخذ هؤلاء النقاد بعين الاعتبار الاستشراق بأنه متناقض، ومنحرف، وغير منسجم⁸⁷.

وتناقش كاترين مصطلح "الحج" في الغرب، بأن لم يعد يقوم به كما كان في السابق مؤمنون مسيحيون يبحثون عن الكأس المقدسة التي شرب منها المسيح في العشاء الأخير والذين يقومون بالحج إلى القدس هم أناس يتعشقون البحث عن القدم، والحب الإنساني والطبيعة والذات، وعلى هذا الاعتبار فإن حج كل من بايرون وسكوت وبيرتين قد يناسب المجتمع البريطاني الذي كان يبحث عن هويات جديدة إزاء ذلك التمزق الذي نتج عن مفاهيم العلمانية والثورة العلمية⁸⁸.

وتشير الدراسات النقدية إلى أن كل نص رحلي يتضمن بالضرورة رؤية وخطاب، ويعكس بشكل واضح "الأنا" التي لا توجد بدون الـ "أنت" والآخر، وحينما يكون هذا النص رحلة؛ فإنه يرتبط بفضائين متعددين وزمن ممتد يجعل النص حافلا بأبعاد سيرية بيوغرافية، تراجمية، ومناقبية يتفاعل لبناء صورة الأنا وصورة الآخر حيث الرحالة أحد المفاتيح التأويلية للعالم والتاريخ والذات، ويمثل الآخر في كتابات الرحالة أفكارا وقيما وعادات وتقاليد وثقافة من خلال صورتين؛ صورة ذهنية قبلية قبل انطلاق الرحلة تتشكل من خلال التلقي قراءة أو سمعا يضيفي على الآخر صورة احتمالية تركز على

⁸⁷ Sampsun: the romantic literary pilgrimage to the orient; Buron, scott and Burton (unpublished doctoral dissertation, university of texax at auston, 1999, P viti, P:1-9

⁸⁸ Inod, P :19-20.

⁸⁹ نقلا عن: شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص203.

⁹⁰ ينظر: شعيب حليفي، المرجع السابق، ص203.

استطاع أن ينتصر على الصليبيين، وهذه النهاية تحجب الاختلاف الديني الثقافي بين الشرق والغرب، وأن النصر العظيم في الرواية والتاريخ حققه صلاح الدين الذي استطاع متخفياً أن يخترق معسكر الحملة الصليبية إلى العمق⁹³.

فالملاحظ أن لكل رحلة آثار في الواقع والنفس، وطريقة خاصة للإدراك وخلق المسافة على هذا الواقع، إذ تتحول الرحلة بكل أسرارها ومعطياتها إلى أن يحضر الراوي في بعده الذاتي بصفته متلقياً وراويها لهذه التجارب، ومن بينها تجربته المنصهرة، باعتبار أن الرحلة مؤثر لشكل الحياة بتعبير جان كلود بريتخت وشكل الكتابة أيضاً، كما يحضر الآخر في بعده المغاير ثم الأمكنة وهي فضاءات للتجربة وتفاعل بعد الذات بالآخر⁹⁴.

فالرحلة الراوي يجسد الأوامر والرؤى والمشاهدات التي عاشها في نص رحلي ذي بناء واقع يتضمن معطيات وبنيات تخيلية من خلال حضور الذاكرة التي انتقت تفاصيل وأحداث وحوارات في مسيرة دامت زمناً معيناً، حيث إن هذا النص الرحلي يمثل تجربة للرحلة والنص هو التحقق الفعلي للحقائق المادية بالمتخيل المجسد في الكتابة عبر الانتقاء والتحويل والتعديل والحجب والإضافة⁹⁵.

وبناء على التجربة الذاتية التي تتحقق كفعل في المحكي (نص الرحلة)؛ جادلت كاترين نص ريتشارد بيرتن، الذي رفض المسيحية التي يعتقد أنها قد لطخت بالمكر والحقد والاضطهاد وفي إراقة الدماء، وتحول إلى الإسلام عبر الصوفية لأن حياة الإسلام منظمة بشكل

النخبوي الغربي لاعتبار الشرق مكاناً رائعاً يمكن أن يهرب فيه المرء من القمع الاجتماعي والديني "المشهد كان بدائياً، لكنه كان جديداً"، هكذا يصرح بايرون ولطالما فكر بايرون في اعتناق الإسلام وهو بتركيا لكنه لم يفعل⁹¹.

ويعمل كتاب (الطلسم) لوالتر سكوت كفنح للتخفي، إذ يشير سكوت بأن هناك عديداً من الرحالة الغربيين الذين اعتنقوا الثقافة الشرقية، بل إنهم من المحتمل أن يكونوا قد تحولوا إلى الإسلام، وتمثل كاترين لهؤلاء الرحالة الذين تحفوا كشرقيين بالسيدة إيستر ستانهورب، والسيدة آن بلانت، والسيد جون بارك هارب، وهم من الرحالة الرومنسيين. لذلك فقد نقلت الثقافة الشرقية في كتاب (الطلسم) بشكل ذكي إلى الجمهور الغربي، حيث بطل سكوت هو صلاح الدين الذي يمثل رفض الصورة المتوارثة من القرون الوسطى على أن العرب (هجم متعصبون) خرجوا من قلب الجزيرة العربية حاملين السيف في يد والقرآن في الأخرى ليصيبوا غماً بالموت أو الإيمان بمحمد، أو في أفضل الحالات بالعبودية والجزية كل من يتجاسر على اعتقاد نبي مكة⁹².

يمثل صلاح الدين الحاكم المسلم التقى المتسامح؛ يؤكد هذا، رسم تلك الصورة التي يتعاقق فيها ريتشارد قلب الأسد بصلاح الدين في كتاب (الطلسم) كأخوين ندين " هنا تلغى صورة الكافر، وصورة المسلم البربري وتستبدل بعربي الصحراء النبيل، كمثل للحرية والإباء. وتؤكد كاترين، أن صورة الحكومة الشرقية كما يروى الكتاب تدل على أن حكمها ملكي نقي وبسيط " يعكس أفكاراً قومية ثورية يجسدها صلاح الدين الذي

⁹³ Voir : Sampson, the romantic literary pilgrimage to the orient, P:179-180-183-205.

⁹⁴ ينظر : شعيب حليفين الرحلة في الأردب العربي، ص 247.

⁹⁵ المرجع نفسه، ص 247.

⁹¹ Voir : Sampson, the romantic literary pilgrimage to the orient, P:131-140-142-153.

⁹² Walter Scott: the talism London, JM, dent, 1956, p20-21.

بالشرق في تعميمات كاسحة⁹⁸، وفي دراسة لاستجابات الرحالة الأمريكيين للشرق الأوسط، تبني **بليت** منهجا مختلفا عن منهج **سعيد**، حيث يعتقد أنه في دراسة أدب الرحلات ينبغي على الباحث ألا يميز بين الفترات الزمنية المختلفة للرحلة، أو بين مجموعات الرحالة، وإنما يجب عليه إدراك الأصوات المختلفة في العمل الواحد لكاتب الرحلة من حيث الدين، والطبقة الاجتماعية، والجنس وألا نغفل النظر في الازدواجية وغموض استجاباتهم للشرق، حيث يذكر في مقدمة كتابه؛ أهداف دراسته التي تتلخص في استكشاف الطرق التي انتهجها ما لا يقل عن مائة رحال أمريكي في تعاملهم مع الشرق الأوسط من خلال كتاباتهم؛ محددا نتائج مواقفهم المتباينة⁹⁹ بين محتقر للشرق، ومحِب له، وبين من له مواقف حيادية، نقل مشاهداته بكل موضوعية، دون التدخل في العقائد أو المعاملات الخاصة للشرق.

لقد أحدث كتاب **سعيد إدوارد** ثورة كبيرة في مجال النقد، وفي تصنيف الرحلات، وفي تجنيسها، وفي الكشف عن النوايا، وتحديد المقاصد، حيث أن كل من قرأه من النقاد الغربيين أو العرب اتخذ مصدرا لانطلاقته في نقد أدب الرحلات، حتى إنه كان رافضا لمنهجه أو لتحليله أو لتعميم أحكامه الكاسحة تجاه الرحالة الغربيين الذين اعتقد **سعيد** أنهم كلهم يحتقرون الشرق، وبأنهم زاروه لأغراض ومقاصد معينة حاملين اعتقادات خاطئة عن الشرق، وناقلين أخبارا مزيفة للقارئ الغربي عن الشرق وأهله.

ولقد توالى بعد هذا الكتاب الذي هو بمثابة "قبلة" آلاف الكتابات في مجال أدب الرحالة والرحلات،

⁹⁸ Edwardus Franciscs, van de Bilt : proximity and distance american travelers to the middle east (1819-1918), 1985, P16.

⁹⁹ Ibid, p18.

جيد تشمل التطهير الشعائري والصلوات في أوقات محددة بالإضافة إلى الروحانية⁹⁶.

لقد أوردنا بحثنا هذا؛ صنفين من النقاد، نقاد اعتبروا الرحلة إلى الشرق أنها كانت بإيعاز من دوافع تجارية أو دينية أو استعمارية ميزتها محاولة هيمنة الاستعمار على الشرق، والتفوق الديني والحضاري، ومن هؤلاء **إدوارد سعيد**، و**رنا قباني** و**محمد الطه**، بينما الصنف الثاني في نقاد غربيين اعتبروا أن الرحلة إلى الشرق تمثل عبورا للحدود الثقافية ونقدا ثقافيا ذاتيا (هاوت) أو الإعجاب بالشرق (سامبسون)، ممثلا بانبهار (نرفال) بالشرق؛ حتى اقترح على الأوربيين أن يتحولوا إلى الإسلام لنيل التقدم، بينما خلص **سعيد إدوارد** إلى أن **نرفال** كان ذا رؤية سلبية لشرق مفرغ⁹⁷، وإذا كان **ريتشارد بيرتن** نموذجا للهيمنة الإمبريالية عند كل من **سعيد**، و**طه**، و**رنا قباني**، فإنه عند **كاترين وسامبسون**، مثال للدفاع عن الإسلام ونبد المسيحية.

وبناء على مكانة التنوع الثقافي في رقي الأمم والحضارات تنبهنا **ماري لويز برات** (Mary Louise Pratt) إلى "منطقة التماس" لتؤكد أنه لا يجب أن تدوس نصوص الرحلات من زاوية التفرقة العنصرية بين الرحالة والشعوب، لكن من حيث التنوع الثقافي⁽⁵⁾ لذلك وجدنا أن **إدواردس فان دي بليت** صاحب كتاب (القرب والنأي، 1985) يجادل قائلاً: "إذا أردنا أن نتجنب خطأ **سعيد**، فيجب أن لا نعالج علاقات الرحالة الغربيين

⁹⁶ Voir: Sampson, the romantic literary pilgrimage to the orient, P:208-209.

⁹⁷ Said: Orientalism, p.184.

⁽⁵⁾ Maria Louise Pratt : imperial eyes: travel writing and transculturation, London and New York, routledge 1992, P:6-7.

الخطاب الاستشراقي كله في سلة واحدة، بل ينبغي أن يكونوا موضوعيين في معالجة موضوع الاستشراق، كما يجب النظر إليه من كل الزوايا؛ من زاوية البعد الجمالي، والتداولي، واللساني، والنقدي الذاتي، باعتبار الرحلة تمثل جنسا أدبيا، يخضع لما تخضع له كل السرود الأدبية، من دراسة وتحليل على ألا يتحيز لجانب واحد ليوهم المتلقي بأفكار تحمل سما فكريا ينتشر مفعوله تجاه الآخر. فالرحلة جنس أدبي تتعدد فيه أصوات المؤلف ولا تسير في اتجاه واحد ثم إنه يجب في دراسة الاستشراق أن نتجنب ثنائية شرق غرب لنفسح المجال لنقد الذات ولنتجنب التعميمات حتى نكون موضوعيين في نقدنا.

وعلى رأي شعيب حليفي فلقد خضع النص الرحلي في المنظور الجديد لتحولات تابعة للنسق الثقافي الذي كانت تندمج بداخله وتتفاعل مع أشكاله القريبة والبعيدة، ذلك أن نظرنا للنصوص متغيرة، ونقرأها بعيون مختلفة، ونعيد تقييم وتأويل الدلالات والمفاهيم المتحركة في البيانات، لأن النصوص الرحلية التي لم يفكر فيها النقد القديم؛ عادت إلى واجهة النقد الحديث والتحليل من منظورات مختلفة، وأسئلة تزيد فهم كل هذا التراث المتغلغل في عمق الأدب وعلى امتداده، وهو ما شفع لأحد الباحثين أن يتساءل عن الشيء الذي ليس برحلة؟¹⁰².

الرحلة إذن؛ نص ممتد في كل الكتابات، تحضر من أجل وظيفة ودلالة، وتؤسس لرؤية ترتبط بالذات والتاريخ، وكأن الرحلة هي نقطة الالتقاء بين الواقعي والحلمي، والثقافي والرؤيوي، والرحلة مثل كل إبداع تعمل على تحويل العابر إلى ضروري، وتغيير القدر إلى شيء مكشوف، فهي تحتضن المؤلف المنسي والعادي والمفاجئ، كل هذا ينطلق من ذات الرحالة الذي- وهو

بين مؤيد ومعارض وإن كان ما يعاب على سعيد في القرن الحالي هو مسألة التعميم حيث إن هناك كثيرا من الرحالة الغربيين الذين أحبوا الشرق وتعاطفوا مع أهله، بل ومنهم من تحول إلى الإسلام، فتوماس أوفام (Thomas Upham) على سبيل المثال كان مقتنعا بأنه " لكي نعرف شعوب الشرق يجب أن نحبهم" موجها هذه النصيحة إلى رفاقه الرحالة الذي عزلوا أنفسهم عن سكان الشرق¹⁰⁰، ثم إن كثيرا من الرحالة الأمريكيين من قارن أخلاق الشرق بأخلاق بلادهم فانتقدوها، وامتدحوا تقوى المسلمين وابتعادهم عن شرب الخمر والكحول، وبقبب فان دي بلت نصا لوليام كيرتيس (George William Curtus) يهاجم فيه المسيحية ويثني على الرسول محمد عليه الصلاة والسلام قائلا: " إذا كنت رجلا، فلا بد أن تقدر عبقرية نبي المسلمين، وأن تكون سعيدا من اجلهم لأنهم وهبوا هذا المعلم الإنساني، ولا بد أيضا من أن تفكر في حقيقة أن المسلم الشرقي أفضل من المسيحي الغربي"¹⁰¹.

إذن؛ الاستشراق إنسي النزعة، وليس كل الرحالة يكرهون الشرق أو كانوا في مهمة عسكرية أو سياسية، فبعضهم يمثل النزعة الإنسانية الخيرة، وإذا كان سعيد إدوارد قد كتب عن الرحالة الإمبرياليين فقد أغفل وأهمل كثيرا من الرحالة البريطانيين الذين تعاطفوا مع الشرق أمثال: فلورنس نايت إنجل، ولويس دوف جوردن.

ختاما؛ نشير إلى أن أدب الرحلات متنوع وغير متجانس، وعلى هذا الأساس فلا يجب أن يجعل النقد

¹⁰⁰ Ibid, p:194-195.

¹⁰¹ جورج ويليام كورتييس (1824-1892) كاتب وصحفي

ومصلح اجتماعي أمريكي، نشر أسفاره في كتابين: (لاحظات

الخواجة في النيل 1852، والخواجة في سوريا)، Curtus: The howadji in Syria, New York, Harper, 1852, p336.

¹⁰² ينظر: شعيب حليفي، الرحلة في الادب العربي، ص: 317-

يجول مشاهداته عبر قناة المخيلة المستندة إلى التذكر،
بالإضافة إلى التعديلات يتحول بدوره من فاعل ومحرك
إلى شخصية وراو، لذلك تحولت الرحلة من فعل إلى نص
إلى إبداع يستقطب تعددا وتنوعا، ليهب معرفة ومتعة،
لأنها ترتبط بالإنسان وأحلامه والاكتشاف والمجازفة
والحفر عن المعرفة المادية والروحية وخاصة مع وسائل
الاتصال الحديثة التي قرّبت كل بعيد، وفتحت المجال على
مصراعيه للاطلاع على كل ما أنتجه الإنسان في الكون
من أبحاث ودراسات وإبداع.